مطبوعات مكتبة مصر

بلال رضي الله عنه

مؤذن الرسول

تأليف

عبد الحميد جوده السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقي

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد

الليل ساج ، والهدوء شامل ، والظلام باسط رداءه الأسود يحجب كل شيء ، وأهل مكة يغطون فى نوم هادىء مستقر ، لا تتخلله أحلام مزعجة ولا رؤى مفزعة ، فحياتهم لهو كلها ، عبث كلها ، خمر ونساء ، طرب وغناء ، والدنيا بالنسبة إليهم هى الحياة : لا يعرفون آخرة ولا أولى ، ولا بعثا ولا نشورا ، يغترفون فى يقظتهم من معين اللذات اغترافا ، ويعبون من كأس الشهوات عبا ، فإذا ما جن الليل وأووا إلى مضاجعهم ناموا ملء جفونهم كأنعام أنهكها التعب ، ونال منها النصب .

وتصرم الليل فارتفع صياح الديكة عاليا فهتك غلالة السكون ، وقرع أذن الشمس فهبت من نومها واستوت فى مضجعها ، فبعثت أشعتها خافتة باهتة ، فتسللت من كوات المنازل تدعو النوام فى رفق إلى الاستيقاظ والنهوض لاستقبال النهار ، والتأهب لاستئناف السير فى موكب الحياة .

ودبت الحياة فى مكة رويدا ، وانتشر الناس فى أرجائها يبيعون ويشترون ، ويأخذون بأطراف الحديث فى دعة وهدوء ، لا يدور بخلدهم ما تخفيه عنهم الأيام من أحداث جسام ، وما ستشاهده مكة من صراع هائل جبار ما شهدت مثله بقعة من بقاع الأرض ، صراع بين الحق والباطل ، بين الهدى والضلالة ، صراع يرفع أناسا ويضع آخرين ؛ ولو اخترقت أبصارهم حجب الغيب القريب ، لانقلب هدوؤهم صخبا وسكونهم صياحا وضجيجا .

وأقبل أمية بن خلف ينهب الأرض بخطواته الواسعة السريعة يتبعه عبد أسود اللون ، طويل نحيل ، خفيف العارضين ، ضامر الوجه ، كثيف الشعر ، فلما أشرف على الكعبة ضيق من خطواته ، وتمهل فى السير ، والتفت إلى عبده وقال :

— إنى لأرجو يا بلال أن يحالفك النجاح كما حالفك فى العام الماضى ، لقد كان نجاحك فى تصريف تجارتنا حافزا على أن تضع قبيلتنا أموالها فى ركابك . لو فشلت يا بلال .

فلم يدعه بلال يتم مقالته بل قال مقاطعا :

— اطمئن يا مولاى .

— سيتحرك ركب قريش غدا ، وإنى لأرجو يا بلال أن يتم تجهيز قافلتنا اليوم ، حتى لا تتخلف عن الركب .

— سيتم ذلك يا مولاى .

ـ سيتخلف ولدى على عن هـــذه الرحلة ، وستكون وحدك المسئول عن القافلة .

ثم دلفا إلى الكعبــة ، فلمح أميــة بن خلف أشراف قريش فى حلقة يتسامرون ، فالتفت إلى عبده وقال :

ـ سأنتظرك يا بلال هنالك (وأشار إلى حلقة السمار) إلى أن تنتهى من تقديم قرابيننا إلى هبل ، واستشارته فى أمر رحلتنا .

وانصرف أمية ، ودرج بلال نحو هبل إلههم العظيم ، وكان على صورة إنسان من عقيق أحمر ، ويده من ذهب ، وقدامه سبعة أقداح ، ولمـا بلغه وجد عنده رجلا وامرأة تحمل مولودا ، وكاهن هبل يضرب بالقــداح ، وحولهم خلق كثير ، فعلم أن ثم مولودا مشكوكا فى نســبه ، وأن والديه يحتكمان إلى الإله ، فوقف مع الواقفين ، وأديرت القداح فكتم الناس أنفاسهم ، واشرأبت أعناقهم ، وظهر القلق والاهتمام على وجهى المرأة والرجــل ، وكانت المرأة أكثر قلقا واضطرابا ، تنتظر حكم الإله فى لهفة وزهبة ، فخرج قــدح مكتوب فيه « صريح » ، فتهللت أســارير المرأة وعــلا وجها البشر ، وضمت المولود إلى صــدرها فرحة ، ثم اقتربت من الرجــل ورنت إليــه بعينين فيهما عتاب ولوم ، وكانت نظرتها إليه أفصح من مقال ، ولكنها لم تكتف بذلك ، بل قالت :

ــ أرأيت ؟ لقد قال الإله قوله الفصل .

ثم انصرف الجمع وبقى بلال ، فتقدم من الكاهن فى خشوع ، وقدم إليه هدية الإله وهو يتمتم :

ــ تتقدم إلى إلهنا هبل العظيم بقرابيننا المتواضعة ، راجين أن يشملنا بعنايته ، ويكلأنا برحمته ، ويبارك لنا فى سفرنا هذا .

فتناول الكاهن هدية الإله وضرب بالقداح ، وانتظر بلال رد هبل العظيم ، فخرج القدح مشيرا بعدم السفر ، فوقع فى نفس بلال حزن ثقيل ، وغشى وجهه الإظلام وغمغم :

ــ أيشير بعدم السفر بعد أن جهزنا كل شىء ، وأعددنا العدة للرحيل ؟

ولاحظ الكاهن حزن بلال الشديد ، فقال :

ــ قدم له قربانا آخر لعله يشفق عليكم ، ويرضى عن سفركم .

ففعل بلال ، وهل كان فى وسعه إلا أن يفعل ؟ ودارت القداح وخرج قدح مكتوب فيه « سافر » ، فسر بلال وفرح ، ولكنه أراد أن يطمئن إلى رضى الرب ، فطلب من الكاهن أن يعيد الكرة ففعل ، ووافق الإله على السفر كما وافق فى المرة السابقة ، فردت نفس بلال إلى طبعها رد الحسام إلى قرابه ، وانقلب إلى أمية مسرورا .

خرج أهل مكة لتوديع القافلة المنطلقة إلى الشـــام تحمل أعز ما يملكون وأحب من يحبون ، تحمل أموالهم وأحباءهم وفلذات أكبادهم . وحانت ساعة الوداع ، وأذن بالرحيـــل ، ففصلت العير وانطلقت الإبل فى قطـــار طويل لا يبلغ البصر مداه ، واســـتوى الحُــرس على خيولهم كســـيوف مشرعات ، وراحوا يحومون حول القـــافلة يتفقدون شئونها ، وكان بلال على رأس قافلة بنى جمح ، وأخـــذ الركب يبتعـــد رويدا رويدا ، ويختفى عن أعين المودعين شيئا فشيئا ، حتى غاب فى الأفق واحتواه الغيب المجهول .

وانطلقت القافلة ترفعها النجاد وتحطها الوهاد ، وتتابع الليل والنهار ، وتبادل القمر والشمس احتـــلال السماء ، حتى بانت لهم أرباض الشـــام ، وكان التعب والنصـــب والكلال قد نال من الإبل والرجال ، فخفت سرعة الإبل ، وتراخى الرجال فوق رواحلهم ، ولاحظ بلال ذلك فرفع صوته بالغناء فانساب عذبا نديا ، رقيقا حنونا ، انسكب فى آذان القوم فأنعش أفئدتهم ، ومس شـــغاف قلوبهم ، وجلجل فأسكرهم بحلو نغماته ، وأنساهم ما هم فيه من تعب ولغو ، فراحوا يتمـــايلون ، ويرددون الغنـــاء ، فدبت الحياة فى القافلة من جـــديد ، ونشطت الإبل فى الســـير ، فبلغ الركب الشام مع غروب النهار .

وأقبـل الليل ومد رداءه الأسود على المكان ، واجتمع كبار تجار قريش يتسـامرون ، ومر عليهم بلال فـدعوه للجلوس بينهم فجلس ، والتفت إليـه أبو بكر بن أبى قحافة وقال :

ـ ما أندى صوتك يا بلال وما أحـلاه ، أنسانا تعب الطريق وقصر علينا المسافات .

ودار الحديث بين القوم حتى انقضى من الليل ثلثه ، فانصرف الجميع للهجوع .

وكرت الأيام ، ونفقت تجـارة قريش ، وتقابل بلال وأبو بكر ابن ابى قحافة كثيرا ، وتوطدت بينهمـا أواصر الصداقة ، وتوثقت عراها ، وفى اليوم الذى تجهزت فيه القافلة للعودة إلى مكة ، لمح بلال أبا بكر يجد فى السير ، فأسرع خلفه ، ولما لحق به سأله :

ـ إلى أين ؟

ـ إلى راهب هناك .

ـ ولمه ؟

ـ أستفسر منه عن تأويل رؤيا رأيتها .

وهمّ بلال بالانصراف ، فقـال له أبو بكـر : ألا تأتى معى ؟

فوافق بلال ، وانطلقا حتى بلغا صـومعة الراهب ، فاستأذنا ودخلا وأخذ أبو بكر يقص على الراهب ما رأى

والراهب مطأطىء البصر ، وبلال مأخـوذ بما يسـمع ، وما انتهى أبو بكر من كلامه حتى رفع الراهب رأسـه وقال له :

— من أين أنت ؟

— من مكة .

— من أيها ؟

— من قريش .

— وأى شىء أنت ؟

— تاجر .

— إن صـدق الله رؤياك فإنه يبعث نبى من قومك تكون وزيره فى حياته وخليفته من بعد مماته .

فسأله بلال : وما النبى ؟

— رسول من عند الله .

فغمغم بلال : رسول من عند الله ؟

فقال الراهب :

— أجل يرسله الله هدى للناس .

فقال بلال : أيرسله هبل أم اللات والعزى ، أم أساف ونائلة ، أم إله آخر من تلك الآلهة الكثيرة بالكعبة ؟

فقال الراهب : يرسله الله خالق السموات فاطر الأرضين . ويأمر ذلك النبى الناس بعبادة الله وحـده لا شريك له ، وبوصل الأرحام وتحطيم الأصنام .

فقال بلال بفزع : أيأمر بتحطيم الآلهة ؟.
فقال الراهب : أجل ليحطمنها جميعا .

***

انتهت رحلة الشـام وعادت القـافلة إلى مكة ، فخف رجالها إلى الكعبة يطوفون بها قبـل عودتهم إلى دورهم واستقبال أهلهم ، واتجهوا جميعا إلى الآلهة الكثيرة فى جوف الكعبة وحولها يشكرونها على ما منحتهم من بركات طوال سفرهم حتى عادوا غانمين . وطاف بلال مع الطائفين ، وتقدم مع الشاكرين ، ولكنه لم يك يشعر بتلك الطمأنينة التى كان يحسها كلما طاف بالبيت ، ولم يك يشعر بذلك الخشوع الذى كان يملأ صدره كلما وقف بين يدى الآلهة ؛ وتمتم بشكره فكان شكرا فاترا لا حماس فيه ، وعهـده أنه إذا خاطب الآلهة خاطبها بصوت يتهدج رهبة ، يدل على الإيمان العميق ، فأنكر نفسـه ، وحاول أن يرد دعتهـا وطمأنينتها فلم يفلـح ، وأفلت منـه زمام أمره ، وراح يتساءل : لم يعبد هذه الآلهة ؟ ولم يكنّ لها الخشـوع والولاء والحب ؟ فألفى نفسه لا يدرى . وراح يتساءل : ما الذى رآه من عظمة هـذه الآلهة ، وما الذى لمسـه من قدرتهـا ؟ إنه لم ير شيئا ولم يلمس شـيئا ، فلم يعبدها ؟ يعبدها لأنه شب فرأى القوم يعبدونها ، يحبها لأنه شب فألفى القوم يحبونها ، يخضـع لها لأنه شب فإذا القـوم

يخضعون لها . وهنا تذكر أنه من أصل حبشى ، وأن أبويه قد حمــلا من الحبشة وبيعا فى مكة . فولد بين آلهتهـا لا يعرف آلهة غيرها ، فلو أنه ولد بالحبشة لعرف آلهة أخرى ، ولعبدها ، ولأحبها ، ولخضــع لسلطانها . وراح ســيال الفكر ينتقل به من حال إلى حال ، ونشبت معركة بينه وبين نفســه ، انجلت عن تزعزع إيمانه والتشكك فى عقيدته .

وذهب بلال إلى منازل بنى جمح ، ووقف على قيــد خطوات من أمية بن خلف وقبيلته ، ينتظر كلمة شــكر على ما عاد به من أرباح وما صادفه من نجاح فى رحلته ، ولكن القوم شــغلوا عنه بتوزيع ما جاءهم به من الشام ، ولم تنفرج شفة من الشفاه بكلمة حلوة تنسيه بعض ما كابده فى رحلته من نصب ، أو تكافئه على بعض ما بذله من جهــد واجتهــاد ، فأحس خيبة أمل مريرة ، فطأطأ بصره وانصرف حزينا كئيبا ، واعتكف فى مكان منعزل يفكر فى حاله ، فأحس ضيقا وتبرما بحياة الاستعباد وتمنى لو أنه كان حرا يفعــل ما يريده لا ما لا يريده مولاه ، ويذهب حيثما شاء لا أن يبقى مقيما إلى أن يأمره بالظعن سواه . وأطلق عنان نفسه للأحزان ، فجسمت له الأوهام شقاءه ، ورأى مستقبله أظلم من حلكة الليــل ، فغمغم فى يأس : « كتب علىّ أن أعيش عبدا وأموت عبدا ، لا أرى إلا بعيونهم ،

ولا أسمع إلا بآذانهم ، ولا أنطق إلا بأفواههم ، ولا أعبد إلا آلهتهم » . فهتف به صوت الرضى : « لم هذا التبرم أيها العبد الجحود ؟ لقد ميزك عن عبيده جميعا ، ألبسك مما يلبس ، وأطعمك مما يأكل ، وأجلسك بين أصفيائه وخلانه . وأتمنك على أمواله وتجارته ، وأحبك شباب القبيلة حبهم لأنفسهم ، فأصبحت بلالا المفضل ، بلالا المدلل » . وكادت نفسه تصفو وتطمئن ولكن صاح به صوت الغضب : « يا للعبد الغبى ، كاد يصدق أوهامه ، ويعتقد أنه سيد لا مسود ، لا فرق بينه وبين أمية إلا لفظا ، إنك أيها الواهم تحفه تقتنى للتفاخر بها ، وتكرم ويعتنى بها ما دامت سليمة ، حافظة لرونقها وقيمتها ، فإذا ما تكسرت هانت وصارت نسيا منسيا ، إنه ما قربك إليه ولا أجلسك بين خلانه إلا لجمال صوتك ، فيابؤسا لك إذا ما ذهب هذا الصوت ، ويا للشقاء الذى ينتظرك إذا ما بلغك الكبر . ستصبح عبدا منبوذا كبقية العبيد المنبوذين ، فلا ثياب جيدة ، ولا طعام حسن ، ولا جلوس بين السادة . وسيزول عنك الشباب ، ولن تخرج لتجارة أو بيع ، فلا يخرج للتجارة إلا الشباب الجلد » وأطرق بلال يفكر ووقع فى نفسه حزن ثقيل . وراح فكره يطوف به عوالم من البؤس والشقاء ، وقطع عليه تفكيره أصوات

الشباب المقتربة ، فرفع رأسه فرآهم يدرجون نحوه ، ولما لمحوه تصايحوا :

— غننا يا بلال واطربنا بحلو نغماتك ، فقد حرمنا عذب صوتك أمدا خلناه دهرا ، غننا يا بلال صوتا ، غننا .

لا . ما كان لبلال أن يعتذر ، وما يستطيع أن يرفض ، فمتى كان للعبد أن يعتذر أو يرفض ، وما كان له إلا أن يلبى نداء سادته ولو ضاق بما يطلبون . فليغن ولو كان متوعك المزاج ، فليغن ليطربهم وليدخل عليهم السرور وإن كان هو فى حاجة إلى من يواسيه ويخفف عنه بعض أشجانه وأحزانه .

وغنى بلال فأسمعهم ذوب نفسه ، واستحالت أحزانه أنغاما فياضة بالعواطف ، جياشة بالإحساسات ، هزت مشاعرهم ، واستمر يرسل النغم الشجى ، ولم يتركهم إلا وهم سكارى بخمر ألحانه .

حر وعبد

في هجعـة الليل والناس نيـام ، فتحت دار من دور بني تيم ، وخرج رجل خفيف العارضـين نحيف الجسم ، مسترخ إزاره على حقويه ، دقيق الساقين ، خفيف اللحم في سائر جسمه . وأغلق الباب خلفه في هدوء ، وسقط نور القمر الباهت على وجهه ، فكان وجها أبيض معروقا ، ناتيء الجبهـة ، غائر العينين . وانطلق الرجـل وهو خائف في مشيته ، يبدو عليـه الحذر في لفتته ، حتى بلغ حي بني جمح ، فانتقل إلى دار أمية بن خلف . ودار حولها حتى بلغ كوة تطل على حجرة العبيد ، فاقترب من الكوة وهو يتلفت حوله ، وهتف بصوت خافت :

ـ بلال .. بلال .

وأحس برعدة خفيفة تهز جسمه هزا ، والاضـطراب يسيطر عليه ، وسأل نفسه ما يفعل وما يقول إذا ما فاجأه أحـد في هذا الموقف المريب الذي يضفي عليـه الليـل شكوكا ؟ فلم يهتد إلى ما يفعـل ولا إلى ما يقول ، فهم بالعـودة من حيث أتى ، ولكن رغبـة الإفضـاء إلى بلال بمكنون سره كانت أقوى من رهبتـه ، فأقنع نفسه بالهتاف

مرة أخرى قبل أن يعود ، وارتفع صوته بالهتاف :

— بلال .. بلال .

ووقف ينتظـر فى قلق ، ثم بلغ مسـمعيه صرير باب فأسرع نحوه على حـذر ، ولمح بلالا يتلفت باحثـا عن مصدر الصوت فهمس :

— بلال !.

فدرج بلال نحو الشبح الذى لمحه منتصبا فى جوف الظلام ، ولما صار أمامه وجها لوجه تطلع إليه وغمغم :

— من ؟ أبو بكر ؟ وما جاء بك الساعة ؟.

— نبأ هام .

— أوما كان من المسـتطاع إرجاؤه إلى الغد بدل أن تجشم نفسك هذا التعب ؟.

— لا يا بلال فما كنت بمستطيع أن أفضى به إليـك تحت سمع سيدك وبصره ، وما أحب أن يصل إلى سمع من يشى بك عند مولاك .

— وما هذا النبأ الهام ؟.

— ظهر نبى هذه الأمة !

— نبى هذه الأمة ؟.

— أجل يا بلال .

— ومن هو ؟.

— محمد بن عبد الله .

— وكيف علمت ؟.

— سرى همس فى مكة بأن محمد بن عبد الله يزعم أنه نبى يدعو سرا إلى توحيد إله واحد ، فاتجهت إليه وقلت له : « يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ » فقال « وما بلغك عني يا أبا بكر ؟ » قلت له : « بلغنى أنك تدعو لتوحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله » فقال : « نعم يا أبا بكر ، إن ربى عز وجل جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعا » فقلت له : « والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمتك ، وحسن فعالك . مد يدك فأنا أبايعك » . فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فبايعته .

— أصدقته سريعا ؟.

— أجل يا بلال .

— قد يبتغى من وراء ذلك جاها أو مالا .

— لا يا بلال ، إنى أعلم الناس بمحمد بن عبد الله ، وأنه لا يبغى من وراء ذلك جاها ولا مالا ، وإلا فإن له من أموال خديجة الطائلة ما يغنيه عن ذلك قرونا ، وله من نسبه فى قريش مكان الذروة والسنام .

— إلام يدعو ؟.

— يدعو إلى التحرر المطلق من عبودية هذه الأحجار

الصماء ، إلى عبادة خالق هذه السماء الصافية ، والصحراء المترامية ، والنجوم اللامعة ، والشمس الساطعة ، والماء والرياض ، والهواء والغياض ، إن دعوته يا بلال لا تفرق بين السادة والعبيد أمام الله إلا بقدر العقيدة والعمل ، وتخلي الطريق بين العبد وربه يدخل إليه بغير واسطة ، ويقرب إليه بغير زلفى . إنه يدعو إلى التراحم والتواد ، والبر والتقوى ، وينفر من الوأد والقطيعة . إن دعوته يا بلال لهناءة الدنيا وسعادة الأبد .

فأطرق بلال يفكر ، وراح أبو بكر يتفرس فى وجهه لعله يستشف أثر مقالته فى نفسه ، فساد السكون بينهما هنيهة ، وطال تفكيره ، فخرج أبو بكر من هذا الصمت المسيطر عليهما ، قال :

— ما رأيك يا بلال ؟.

— إنى يا أبا بكر لا أدرى ما أقول .

— لا تدرى ما تقول ؟ خلتك يا بلال ستفرح لظهور هذا الدين فرحى لظهوره ، بل حسبتك يا بلال ستسر به أكثر من سرورى . سوى هذا الدين بينكم وبين ساداتكم وجعلكم أندادا لهم أمام الله ، ثم تقول يا بلال لا أدرى ما أقول ؟ أين دين قريش الذى لا يقبله عقل من هذا الدين القويم ؟ وأين آلهة قريش المتعددة الأسماء المعدومة الأفعال من الإله العظيم الذى يدعو محمد لعبادته ؟ تلك

أحجار صماء وهـذا جل شأنه حي صمد ، واحـد قهار ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير .

ــ إني يا أبا بكر لا أقارن بين ما جاء به محمد ودين قريش ، فقد تشككت في قدرة الآلهـة جميعا إثر عودتنا من الشام ، ولكن تعلم أنه من الصعب على النفس أن تهجر ما كانت تدين به وتعتنق دينا جديدا بين عشية وضحاها ، وإن كان الدين الجديد أفضل وأعظم .

ــ قد يكون هـذا القول مقبولا من قرشي يخشى من تسفيه أحلام آبائه وأجداده ، وأما أن يصـدر منك فإنه شيء عجاب . فما آلهة قريش بآلهة آبائك ، فعلام التشبث بها والخوف من تحطيمها ؟.

ــ فلتحطم جميعا .

ــ فلم التردد ! قل يا بلال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فصمت بلال قليلا ثم قال بصوت فيه هزة :

ــ إي والله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فشاع الرضي في نفس أبي بكر ، وانبسـطت أسارير وجهه . وقال لبلال :

ــ سـأنتظرك في داري غـدا مساء ، وسنذهب إلى محمد لنبايعه .

وسلم أبو بكر وانصرف . ووقف بلال يرقبه حتى غمره الظلام ، فعاد إلى الدار والدين الجديد يملأ نفسه ويملك عليه كل مشاعره . عاد إلى الدار وهو لا يدرى أنه سيعذب فى هذا الدين ويضطهد من أجله ، ويمتحن فيه امتحانا شديدا رهيبا يجعله سيد الممتحنين ، وإمام المعذبين الصابرين .

وقابل بلال محمدا وبايعه ، وفتنه الدين الجديد فأصبح يختلف إلى محمد حينما تغفل أعين الناس ، فى قائلة النهار حينا وتحت ستار الظلام أحيانا ، وراح يتعلم تعاليم الدين الجديد ، ويتأدب بآدابه ، وينهل من معينه الذى لا ينضب . وأثرت روح محمد القوية الفتية فيه ، فحولته من عبد خاضع ذليل إلى إنسان كامل له مثل عليا يعمل على تحقيقها ويسير فى طريقها قدما . لا يثنيه تعذيب ولا يحوله وعيد .

خرج بلال من عند محمد قبل أن تدب الحياة فى مكة ، وقبل أن يخرج الناس من دورهم ، واتجه إلى الكعبة ليطوف قبل العودة إلى دار مولاه ، فلما دخل وجد خلوة من البيت فراح يدور على الآلهة يتفرس فيها ويتساءل : كيف كان يعبد هذه الأصنام الصماء من قبل ؟ وكيف كان يتقرب إليها ينتظر منها الخير وهى لا خير فيها ؟ كيف كان

يفرحه رضاها أو يغمه غضبها ، وهى لا تدرى ما الرضا وما الغضب ؟ كيف لم يهتـد من قبل إلى أنها من صنع إنسان . وأنها أحقر من أن تسمع رجاء أو تجيب دعاء ؟ وقال فى نفسه : « أكانت الدموع تنهمر من عينى عندما كنت أناجي هذه الآلهة ؟! أكنت أرتجف فرقا لما كنت أقف بين يديها ؟! لكم كنت غبيا ! يا للوهم الخادع جسَّم الخيال فجعله حقيقة ، وألبس القزم ثوبا فضفاضا فصيره عملاقا رهيبا ، وأضفى على الأحجار ثوبا براقا فجعلها آلهة قادرة مهيبة ؛ يا للوهم الخادع الذى جعل القوم يتنكبون الطريق القويم وهم يوقنون أنهم على الصراط المستقيم ؛ يا للوهم الخادع الذى يسدل على أبصار الناس أحجبة كثيفة تجعلهم لا يفرقون بين النور والظلام ، وبين الهدى والضلال » . وبلغ صنم هبل فتطلع إليه وقال : « أنت أيها الإله العاجز ! أين كنت يوم كسرت يدك ؟! ولم تركتها تكسر ؟!، وكيف قبلت كبرياؤك أن يعوضك عبدك الإنسان الضعيف خيرا منها يدا من ذهب وهاج ؟ يا ذا اليدين ولا يد لك ، ما تستطيع أن تفعل لو لطمتك لطمة أو صفعتك صفعة ، أو بصقت فى وجهك ؟ » وبصق بلال فى وجهه وغمغم : « إنك لا تستحق ما أضيعه معك من وقت أيها العاجز . سيأتى اليوم الذى يدك فيه عنقك ولا تجد من يصنع لك بدلا منه » .

وانصرف بلال وهو لا يدرى أن ثم رجلا كان يرقبه ، شاهـــد ما صنع بإلهه ، فانسل خلفه يعد عليـــه حركاته ، ويحصى سكناته .

أحد .. أحد

ترك أميـــة بن خلف داره وكان القلق والاضـــطراب باديين على وجهه ، وانطلق إلى دار الندوة ليقابل أبا جهل وأبا لهب وأشراف قريش ، ويشـــاورهم فى أمر محمـــد ابن عبـــد الله الذى سفه أحلامهم وأحـــلام آبائهم ، لعلهم يهتدون إلى ما يقضى على هـــذه الدعوة التى اســـتفحل خطبها واشتد خطرها .

أقلقت الدعوة الجديدة أمية ، وأقضت مضجعه بعد أن دعاهم محمد إلى داره وعرض عليهم الإسلام ، لا يخشى بطشهم ، ولا يخاف بأسهم ؛ ولقد زاد من قلق أمية وقوف محمد على الصفا يدعو معشر قريش لدينه الجديد جهارا . لا يحفل بأحد ، ولا يفت فى عضده ما لقيه من إعراض منهم بالأمس ، ومما زاد فى قلق أمية استجابة بعض نفر لمحمد ، ودخولهم فيما يدعو إليه ، وبينما كان أمية فى الطريق لمح صديقه عبد الرحمن بن عوف فناداه :

— يا عبد عمرو .. يا عبد عمرو .

فلم يجبه عبد الرحمن ، واستمر فى طريقه على الرغم من أن صوت أمية قد صك أذنيه ، وارتفع صوت أمية بالنداء ثانية ، فلم يحفل به عبد الرحمن ؛ فأسرع أمية خلفه ، ولما لحق به قال له :

— أفسدك محمد علينا ، فتركت دين آبائك ودخلت فيما يدعو إليه ؟ وأدعوك بعبد عمرو فلا تجيب ، أرغبت عن اسم سماكه أبوك ؟

— أنت تعلم أنى سميت حين أسلمت عبد الرحمن .

— إنى لا أعرف الرحمن ، فاجعل بينى وبينك شيئا أدعوك به ، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف .

— يا أبا على ؛ اجعل بينى وبينك ما شئت .

— فأنت عبد الإله .

— نعم .

وانطلقا يتجاذبان أطراف الحديث ، فكان أمية يعتب على عبد الرحمن تركه دين الآباء والأجداد ، وكان عبد الرحمن يدعوه إلى الدين الجديد . وحاول كل منهما أن يطوى صاحبه فلم يفلح ، وارتفع الجدل بينهما واشتد ، حتى بلغا دار الندوة فاستأذن أمية ودخل .

واكتمل عقد أكابر قريش وأشرافها ، فراح أمية

ابن خلف وأبو جهل يهاجمان محمدا ، ويسخران من دعوته ويسهبان فى خطرها ؛ باذلين ما فى وسعهما لتأليب القوم عليه ، وإيغار صدورهم ، وما كانا فى حاجة إلى التهجم أو السخرية أو الإسهاب ، فإنهم جميعا لمحمد كارهون ، ومن دعوته يرتجفون ، يعلمون علم اليقين أن فى ظهوره احتجابهم ، وفى ارتفاعه هبوطهم ، وفى انتصاره زوال عزهم وانفلات الزعامات من أيديهم ، فراحوا جميعا يفكرون فيما يفعلون لدرء هذا الخطر الزاحف الذى يهدد بتقويض سلطانهم ، ويزلزل الأرض تحتهم ؛ وبينما كانوا يديرون قداح الرأى بينهم ، وبينا كان أمية يحرضهم على المسلمين ، ويدعوهم إلى أخذهم بالشدة ، دلف إليه رجل وأسرّ إليه ببضع كلمات ، فتغيرت هيئته ، وانقلبت سحنته ، وتقلص ما بين حاجبيه ، ونظر إلى الرجل والغضب يتطاير من عينيه ، وقال :

— أواثق أنت ؟

— تمام الثقة .

— رأيته يختلف إلى محمد ؟

— رأيته مرارا .

— ما كان هذا ليخطر على قلبى .

— بل رأيت ما هو أدهى من ذلك وأمر .

— وما رأيت ؟

ـ لا يستطيع لسانى أن يجرى بما رأيت عيناى ، ليتهما لم تريا شيئا .

ـ قل ما رأيت .

ـ رأيت .. رأيته يبصق فى وجه إلهنا العظيم هبل .

فصاح أمية صيحة ملؤها الغضب وقال :

ـ أفعل ذلك ؟

ـ أجل .

ـ يا للعبد الفاجر .

وأصبح صدر أمية كمرجل يغلى بالمقت والغضب ، وأحس حاجة إلى البطش لينفس عن صدره بعض ما أغمه ، فهم بالقيام ليذهب من فوره إلى ذلك العبد يصب عليه جام غضبه ، ويعذبه عذابا ما ذاق مرارته أحد ، والتفت إليه أبو جهل ، فقرأ فى وجهه ما يعتلج فى صدره ، وما تضيق به نفسه فقال له :

ـ خيرا يا أبا على ؟

ـ بل شرا مستطيرا .

ـ ما هنالك ؟

ـ عبدى بلال .

ـ ما به ؟

ـ كفر باللات والعزى ودخل فيما يدعو إليه محمد .

فظهر الغضب على وجه أبى جهـل ، وأطرق هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال :

ــ وعلام عولت ، إنها لفتنة كبرى .

ــ الويل للعبد إن صدق ما بلغنى عنه .

ــ بل الويل لنا إن تركنا محمـدا يبعث دعواه هنـا وهنالك يفتن الضـعفاء والعبيد ، ويجمع حوله العصـاة الكافرين بآلهـة الآباء والأجداد ؛ لقـد انسابت دعوته فى غفلة منا ، ولكننا أفقنا قبل أن يبلغ مأربه ، فما أمامنا إلا أن نعلنهـا حربا مذكارا عليـه وعلى أعوانه لا هوادة فيهـا ولا لين ؛ اذهب يا أمية إلى عبدك الحقير هذا وأدبه ، ونكل به نكالا شـديدا ليكون عبرة لأولئـك الأذلاء الذين توسوس لهم نفوسهم الخبيثة الخروج على ديننا ، اذهب يا أمية وليكن عذابك شديدا ، ونكالك رهيبا تقشعر من هوله أبدان الصـابئين ؛ اذهب يا أميـة ولا تأخذك فيه رأفة ، وانتزع من قلبـك الرحمة ، فما استحق أمثال هؤلاء الكافرين رحمة أو شفقة ؛ اذهب يا أمية ، اذهب . أما أنا فلن يهدأ لى بال حتى أكتم أنفاس هذه الدعوة فى مهدها ؛ ولن تقر لى عين حتى أعيد إلى آلهتنا هيبتها التى نال منها محمد وشرذمته . أما أنت يا محمد فسأناصبـك العداء جهارا ، ولن تكون قرابتك منى شفيعة لك عندى ، مستدرة العطف عليك والشفقة لك ، بل سيتحجر قلبى ،

ولأذيقنك من العذاب ألوانا ، فقد فرقت بين الأب وبنيه ، والأخ وأخيه ، وجئتنا بعار ما جاء به أحد قومه من قبل .

ولم يطق أمية البقاء فى مجلسه أكثر من ذلك ، فانتقل إلى داره وسورة الغضب تسيطر عليه ، وصوت أبى جهل يرن فى أذنيه . وقصد حجرة بلال ووقف على بابها يسترق السمع ، فقرع أذنيه صوت بلال وهو يترنم بصوت عذب خفيض ، كله حلاوة وكله خشوع . وأرهف أذنيه فسمع كلاما ما سمع مثله من قبل قط ، فما هو بالشعر وما هو بالسجع . فغمغم : « هذا ما سحر العبد . هذا قرآن محمد ولا ريب . برح الخفاء وبان المستور ، كفر بلال باللات والعزى وتبع هواه » . وهنا ثار بركان الغضب فى صدره ، فدفع الباب بشدة ، واندفع كالعاصفة إلى داخل الغرفة ، فألفى بلال نفسه أمام سيده ، فتطلع إليه فأنكره ، وعرف الغضب فى وجهه فتبين أن أمره قد افتضح ، فلم يجزع ، ولم يرتجف بل حلت السكينة فى قلبه ، وانتظر ما ينزل به من بلاء فى هدوء .

— ما كنت تقرأ ؟

— كلام الله .

— أى إله ؟، ومتى تكلم الله ؟

— أنزل على عبده الكتاب والحكمة .

— كفى هراء !

— إنه الحق وربى .

ـ ومن ربك هذا ؟

ـ رب السماوات والأرض وما بينهما سبحانه .

ـ كف أيها العبد القذر ، وإلا كتمت أنفاسك .

فاستطرد بلال ولم يحفل به :

ـ خالق كل شيء ، القادر على كل شيء .

ـ يا صابيء ، أكفرت بآلهتنا واتبعت رجلا مسحورا ؟

ـ ما كفرت ، بل هدانى الله إلى الصراط المستقيم .

فثارت ثائرة أمية ، ولم يطق صبرا ، فلطم بلالا لطمة شديدة وصاح به :

ـ ومتى كان للعبد أن يتبع هواه أو يتخذ له إلها غير آلهة سادته ؟ إنك عبدى ، ملك يمينى ، أفعل بك ما أريد ، وتفعل ما أريد ، وتعتنق ما أعتنق ، وتدين بما أدين .

ـ على رسلك يا مولاى ، إنى أعلم علم اليقين أنى عبدك ، وأنى ملك يمينك تفعل بى ما تريد ، وأفعل ما تريد ، ولكن اعلم يا مولاى أن جسدى فقط هو ما تملك ، وما تستطيع أن تملك ؛ أما عقلى ، أما وجدانى ، أما ما يكنه صدرى ، أما حبى وبغضى ، فهذا جميعه لى ، لى وحدى ، لا يستطيع كائن من كان أن يملكه أو يتحكم فيه ، ولا تستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من الحول والطول أن ترغمنى على أن أعتقد ما لا أعتقد ، أو أدين بما لا أدين به قسرا . ولن تستطيع أية قوة بالغة ما بلغت من

الحول والطول أن تحولني عمــا اعتنقت ، أو ترغمني على ترك دين الله الذى هــداني إليه ، فلا تحاولن يا ســيدى عبثا . ولا تركبن شططا .

ــ عــد يا بلال إلى رشدك ، وإلا استللت روحــك الخبيثة التى أفسدها محمد من بين جنبيك .

ــ ما أفسدها محمد ، بل هداها سواء السبيل .

ــ أتسترسل فى غيك ، وتعصى أوامرى ؟

ــ إن عصيت أوامرك فقد أطعت الله .

ــ أتكهنت يا بن السوداء ؟ واللات والعزى لأعذبنك حتى تترك هذا الدين .

ــ والله لو قطعتنى إربا إربا ، وأزهقت روحى نفســا نفسا ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته .

ــ ما كان هذا ــ يا لئيم الطبع ــ طبعك . لقــد كنت أطوع لى من بنانى ، حتى إذا ما أطعمتك جيــد الطعام ، وألبســتك غالى الثياب ، جئت اليوم تعصينى ، ولــكن لا غرابة فى ذلك فأنت عبد ابن عبد .

ــ لا تمن علىّ إطعامى وكسوتى ، فما أطعمتنى لله ، وما كســوتني لله ، بل فعلت ذلك لمــا أقوم لك به مــن خدمات جليلات ، ولما أدخله على أصــفيائك وندمائك من سرور . وقد أصبحت يا مولاى لا أحفل بطعامك الجيــد

ولا بثيابك الغالية . فما عليّ إن أنا جعت يوما وشبعت يوما فى هذه الدنيا الفانية ؛ إن كل ما أبغى هو رضا الله ربى حتى أفوز بجنات عرضها السماوات والأرض .

— أهذا ما علمك محمد ؟ سنرى يا بلال حتام تثبت على هذا .

— حتى تصعد روحى إلى خالقها .

— سنرى ..

ودرج إلى الباب كليث هائج ، وكان الغضب والحنق ينعكسان على وجهه ، وأطل برأسه من الباب وصاح على الخدم ، فخفوا سراعا ووقفوا أمامه خاشعين ينتظرون أوامره ليصدعوا بها ، فصاح فيهم وهو يشير إلى بلال :

— انضوا عن هذا الكافر ثيابه ، وألبسوه الأسمال البالية ، وقيدوه ليعرف قدره .

فاتجه الخدم صوب بلال لإنفاذ ما أمروا به ، فالتفت إلى أمية وقال بصوت كله هدوء ، وكله اطمئنان وثبات :

— مهلا ! ها هى ذى ثيابكم الغالية ، فلا حاجة لى فيها .

وخلع ثيابه ولبس ما قدم إليه من أسمال ، ثم قدم إليهم يديه فقيدوهما ، ووقف ينتظر ما يحل به من عذاب وما ينزل بساحته من اضطهاد بجنان ثابت ، ونفس راضية مرضية . ولمح أمية ثباته واطمئنانه فازداد كمده ، وتضاعف غيظه ،

وعض على أنيابه حتى سمع صريرها ، وتقدم منه والغضب يطفح على وجهه ، ووضع فى عنقه حبلا من مسد ، ونظر إليه نظرة هائلة أودعها كل ما يعتلج فى صدره من الحنق والمقت ، ولو أنه صوبها إلى غير بلال لارتعدت فرائصه فرقا ، ولكن بلال وقف ثابتا لا يتزعزع ، وغمغم أمية :

ـ سيكون عذابى رهيبا .. وسترى يا بلال ..

ثم جذب الحبل جذبة شديدة آلمت بلالا ، ولكنه لم ينبس ، وسار أمية وهو خلفه صامت ، ونادى صبيان القبيلة ودفع به إليهم وأمرهم أن يعدوا به بين أخشبى مكة ، ليكون عبرة للصابئين الكافرين باللات والعزى .

وخرج الصبيان بفريستهم يتصايحون ، وراح الناس يتساءلون عن النبأ ، فكان الجواب : إنه كافر باللات ، ناكر للعزى ، صابىء عن دين القوم . فكانوا يرشقونه بأقذع السباب ، وينعتونه بأقبح النعوت ، وهو ساكن ثابت ، لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إليهم ، كأن الأمر لا يعنيه ؛ ولما اقترب الموكب من الكعبة ، ارتفع تصايح الناس ، فراح بلال يردد :

ـ أحد .. أحد .

واستمر الموكب فى طوافه ، والصبيان فى هتافهم وصياحهم . وبلال فى ترديد شعاره : « أحد .. أحد » حتى تصرم النهار ، ونال التعب والكلال من الصبيان ، فعادوا به

إلى الدار ، وهو أصرم في الحق مما كان ، موطدا العـزم على أن يتحمل ضـنوف العـذاب ، فقد هان كل شيء في عينيه بعد أن رشـد وذاق حلاوة الإيمان . وبلغ أميـة عودة بلال بعد انقضاء نهار مضن شديد ،وجهت إليه فيـه شتى الإهانات ، وتجرع فيه كأس العذاب ، فاتجه إليـه وهو يرجو أن يكون ما صادفه في يومه من بلاء . وما ناله من عناء ، رادعا له وزاجرا . ولكنه عندما دخل عليـه لم يقف له بلال ولم يحفل به ، فتغاضى أمية عن ذلك . وأقبل عليه وقال له في صوت فيه لين :

ـ إيه يا بلال ، عسى أن تكون قد ثبت إلى رشدك .

ـ أحد .. أحد .

ـ لا توغر صدرى يا بلال عليك أكثر من ذلك ، وإلا نكلت بك نكالا شديدا .

ـ أحد .. أحد .

ـ لا تتمـادى يا بلال ، واعلم أن روحـك عنـدى أصبحت لا تساوى شروى نقير .

ـ أحد .. أحد .

ـ يا بن السـوداء كف عن ذلك ، وإلا قتلتك ككلب قذر .

ـ أحد .. أحد .

ـ واللات والعزى لأقتلنك .

وهجم أمية عليـه وقبض على عنقه بيـديه ، وراح يضغط عليه برهة ، ثم تركه فجأة وقال له :

ــ لا ، لو قتلتك لأرحتك من عذابى .. لا ، لن أنيلك هذه الراحة أبدا .

ودفعه دفعة شديدة فتدحرج على الأرض ، واتجه أمية نحو الباب ، فصاح بلال قبل أن يخرج :

ــ أحد .. أحد . والله لو أعلم كلمـة هى أغيظ لكم منها لقتلها .

***

وكرت الأيام ، وترادف العذاب على بلال وتتابع ، وهو صـامد ثابت لا تلين له قنـاة ، ولا ينال أميـة مبتغاه . واستعان بأبى جهل فى تعذيبه فآبا بالخيبة والفشل ، فزاد غضبهما على الأيام . وفى يوم جلسا يتشاوران فيما يفعلانه بهذا العبد الذى أذلهما ونال منهما ؛ قال أمية لصاحبه وهو يحاوره :

ــ أذقناه صـنوف العذاب فما تزعـزع ولا حاد عن طريقه ، ولا نطق بما نشتهى ، فما أمامنا إلا قتله والاستراحة منه ومن عناده .

ــ كيف تشير بقتله يا أمية ؟ ألا تعلم أن قتله دليـل عجزنا ، وآية ضعفنا ؟

ــ وما نفعل به إذن ؟ ضاق صبرى عن احتماله .

ـــ نستمر فى تعذيبه .

ـــ حتام ؟

ـــ حتى يكفر بمحمد ورب محمد ..

ـــ إنا يا أبا جهل نتعلق بخيوط واهية ، ما رأيت أحدا من قبل يصبر على العذاب صبر ابن السوداء هذا .

ـــ لا تقنط ، فلن يحتمل عذاب اليوم .

ـــ وما تفعل به ؟

ـــ يومنا قائظ شديد الحرارة ، تلفح شمسه الوجوه ، فلألبسنه درعا من حديد ، ولأقيـــدنه فى بطحاء مكة تحت نار الشمس المتقدة ، فلن يستطيع معها صبرا .

ـــ أتظن ذلك ؟

ـــ بل إن صوت توسله ليرن فى أذنى ، يطلب منا العفو والغفران .

ـــ افعل به ما تشاء .

وجيء ببلال مقيدا ، وأضجعوه على الرمال ، وتركوه للشـــمس وانصرفوا ، فراحت الشـــمس تقذفه بســـهامها فيتلوى صابرا ، وجعلت الرياح تزجى إليه غبارا ســـاخنا ملتهبا ، واســـتمر لذع الشمس له ، وتفصـــد العرق منه ، وتسرب إلى عينيه ، فزاده ذلك بلاء على بلاء ، ولـــكنه ظل صابرا لا يجزع ولا يقنط ، ينتظر الفرج من الله بقلب عامر بالإيمان ، ممتلىء باليقين .

وأقبـل أمية وأبو جهل وخلفهما أتباعهما ليروا ما نزل بفريستهم من بلاء . وتقدم أبو جهل من بلال ممنيا النفس بسماع ضراعته وتوسلاته واستغفاره ، وما إن رأى بلال أبا جهـل وأمية وأذنابهما حتى تيقظت نفسه ، وشـحذت عزيمته وازدادت مضاء ، ومال أبو جهل عليه ، وقال :

ـ هيه يا بلال .

فهتف بلال : « أحد .. أحد » .

وما صـك ذلك أذن أبي جهـل حتى اربد وجهـه ، وضاق صدره ، ورفسه رفسة شديدة وغمغم : « أما زلت على غيك يا بن السوداء ؟ » وتلفت حوله فرأى صـخرة عظيمة ، فأمر القوم بوضعها فوق صـدر بلال . ووضعت الصخرة ، فازداد عليه الكرب . وازداد مع ذلك صـلابة وعنادا ، وراح يهمس بصوت خفيض :

ـ أحد .. أحد .

وارتسم الألم على وجهه ، وبان عليه الجهـد ، وراح يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وجعـل يئن ويتوجع ، وأميـة وأبو جهل وأتباعه يرقبون ما هو فيه من بلاء بقلوب قدت من الصـخر . وكانوا كلما ازداد كربه ، ازداد فرحهـم ؛ يحسـبون أن قوة احتماله سـتنهار عما قريب ، وأنهـم سيفوزون منه بما يريدون . وتحركت شـفتاه ، فأرهفوا السمع جميعا ، ليسمعوا منه ما يحبون ، ليسمعوا منه سب

محمد وإله محمد ، كما سمعوا ذلك من إخوانه المسلمين المعذبين قبله ، ولكن تحركت شفتاه بما يكرهون :

ـ أحد .. أحد .. إن يقتلونى فلم أكن لأشرك بالرحمن من خشية القتل ، فيا رب إبراهيم ويونس وموسى وعيسى نجنى ثم لا تبل .

أبعد هذا لا يكفر بمحمد وإله محمد ؟!، أبعد كل هذا العذاب يناجى ربه ويطلب عونه ، لقد انقطع آخر خيط للأمل فى أن ينالوا منه بعض ما يحبون ، فما هم بمستطيعين أن يتركوه بعد هذا ليكون دليلا على عجزهم وفشلهم ؛ ونظر أمية إلى أبى جهل وقال :

ـ ألم أقل لك ألا فائدة من تعذيبه فهو عبدٌ كثير العناد لا يلين ، فلم يبقَ أمامنا إلا قتله .

فأطرق أبو جهل يفكر ولم يحر جوابا .



وخرج أبو بكر من عند النبى فى الهجيرة وأغذ فى السير ، وراحت الشمس الحامية تلفح وجهه ، وتفصد العرق منه غزيرا ، وضاقت أنفاسه من شدة الحر ، ولكنه لم يحفل بذلك كله ، فقد كانت نفسه فى شغل عن كل ذلك ، كانت فكرة تعذيب بلال واحتمال قتله تسيطر على كل حواسه فتشغله عما عداها . ثم أشرف على ساحة التعذيب ، فرأى أناسا يلتفون حول صخرة عاتية يصيحون ويصخبون ،

فأسرع نحوهم ، ولما بلغهم ، رأى بلالا تحت الصخرة يئن ويتوجع ، ويغمغم بين آونة وأخرى :

— أحد .. أحد .

فكادت الأرض تميد تحت قدميه ، وجرى الدم حارا فى عروقه ، وامتلأ صدره بإحساسات شتى متباينة ، فبقدر ما فاض بالشفقة على بلال والرثاء له ، بقدر ما فاض بالحنق على أميـة وأبى جهـل ، وبالمقت لهما . ولم يسـتطع أن يتمالك نفسه ، أو يتحكم فى عواطفه ، فأسرع إلى أميـة وصاح به ، غير هياب من تلك الجموع الثائرة المتعطشة إلى تعذيب المسلمين والتنكيل بهم :

— حتام تعذب هذا العبد ؟

— وما شأنك أنت ؟ إنه عبـدى ، أعذبه متى أشـاء وأطلقه أنى أشاء .

— ألا تتقى الله فيه ؟

— كفى يا بن أبى قحافة ، إنه يعـذب بسببك ، فمـا أفسده سواك .

— ما أفسدته ، بل هديته سواء السبيل .

— كفى ودعنا .

— لا أدعكم حتى تطلقوه .

— لن نطلقه حتى يعود فى ديننا أو يموت .

— لن يعود فى دينكم أبدا ، فلن يبيع الهدى بالضلالة . ولن يعود إلى الظلام بعد أن رأى النور .

— أجئت تلتمس الصفح عنه ، أم جئت تسبنا ، وتعيب ديننا فى وجوهنا ؟

— بل لأقول لك إنه سيبقى على دينه حتى يموت ، وفى موته فقد لثمنه .

— أأبقيه وأطعمه وأكسوه ليسب آلهتنا ، ويفتن صغارنا ؟

— إنى على استعداد لشرائه .

— أتشتريه ؟

— أجل .

— كم تدفع فيه ؟

— ما تطلبون .

— خمس أواق ذهبا .

ودفع أبو بكر ما طلبوه ، فالتفت أمية إليه وقال :

— لو أبيت إلا أوقية لأخذته .

— لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته .

وأسرع أبو بكر نحو الصخرة ، وراح يزيحها عن صدر بلال ، وعاونه بعض الواقفين . ونهض بلال ووضع يده فى يد أبى بكر وانطلقا ؛ وفى الطريق التفت بلال إلى أبى بكر وقال :

ـ إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني ، وإن كنت إنما اشتريتني لله فدعني وعمل الله .

ثم بلغا منزل الرسول فاستأذنا ودخلا ، ولما رأى النبي بلالا بان السرور على وجهه ، والتفت إلى أبي بكر وقال :

ـ الشركة يا أبا بكر .

ـ لقد أطلقت سراحه يا رسول الله .

أغنياء وفقراء

أطلق سراح بلال ، وتصرمت أيام استرقاقه ، وما انقضت أيام اضطهاده وتعذيبه ، فقد راحت قريش تطارد المسلمين ، وتفتن في إيقاع الأذى بهم . وزال ما كان فيه من نعيم عند أمية ، وأقبل التشرد والجوع بعد الإقامة والشبع ، وأقبل شظف العيش بعد الرفاهية والرغد ، فما نال هذا التبدل من نفس بلال ، وما التفت إليه فقد كان صدره يعتلج بإحساسات أخرى أنسته نفسه وماضيه ، كان يعتلج بالأمل الذي نفخه رسول الله فيه ، وأضحى له هدفا يسعى إليه ، لا يثنيه عن بلوغه اضطهاد أو تعذيب أو تشريد أو جوع . تبدل العبد بلال بعد اصطحابه النبي إلى إنسان آخر له مثل عليا يعمل جادا للوصول إليها ، له غرض في الحياة يعيش لأجله ، ويعمل من أجله ، ووطد

العزم على أن يشاطره آلامه وآماله حتى يظهر الله دينه ، وحتى يأتيهم بنصره الذى وعدهم .

ومرت الأيام ولم يفتر اضطهاد قريش للمسلمين ، بل تضاعف لما تيقنوا أن من هاجر منهم إلى الحبشة فرارا بدينه عاش فى كنف النجاشى آمنا مطمئنا ، واشتد اضطهادهم وتزايد إثر إياب وفدهم من عند النجاشى يجر أذيال الخيبة والفشل .

اجتمع رؤساء قريش ليتشاوروا فيما يفعلون بمحمد وصحبه ، وليفكروا فى استعمال سلاح آخر غير سلاح الاضطهاد الذى فل ، سلاح أكثر مضاء ، وأعمق أثرا .

والتفت أبو جهل إلى الحاضرين وقال :

ــ والله ما بلغنا من ابن عبد المطلب وأصحابه شيئا ، نفتنهم فى أنفسهم وأموالهم ، فلا تزداد دعوتهم إلا انتشارا ، ولا يزداد أمرهم إلا ظهورا .

إن أتباع محمد ليكثرون بين أظهرنا ، وهذا دينهم قد خرج من مكة فاستقر فى أرض الحبشة ، وجد أصحاب محمد هناك عزة ومنعة وجوارا .

وراحوا جميعا يديرون قداح الرأى بينهم ، وأخيرا قر رأيهم على ألا يبيعوا للمسلمين ولا يبتاعوا منهم ، فيقضى ذلك عليهم ، ويقطع دابرهم . وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة .

حوصر المسـلمون فى شـعب أبى طالب ، وكان بلال بينهم ، وتركوا للجوع يستبد بهم ، وبقى بلال ملازما للنبى يشاطره ما يقاسيه من الشدة والجوع .

ومرت الأيام على المسلمين وئيدة ، ونال الجوع منهم أي منال . وخوى بطن بلال فخارت قواه ، وزاغت عيناه ، وتفككت أوصاله ، وراح يتلوى من ألم الجوع ، ولكن كل هذا لم ينل منه أكثر مما نال منه الاضطهاد والتعذيب ، فما استطاع الجوع أن يضعف نفسـه أو يزعزع عقيدته أو يمس إيمانه ، بل على النقيض من ذلك زاد الألم نفسه صفاء . وهل يصقل النفوس مثل الألم ؟ فما الألم للنفوس إلا النار للمعادن يصهرها ويخلصها من أدرانها ، ويخلفها نقية صافية مجلوة .

وارتفع صياح أطفال المسلمين ، ففرح بعض من قدت قلوبهم من الصـخر من قريش لهـذا البلاء النـازل بالمحصـورين ، ولانت بعض القلوب ورقت ، فما أطفال المسلمين إلا أطفالهم ، وما هم إلا بعضهم وجزء من فلذات أكبادهم ، وإن خرج آباؤهم عن دين القوم وعما ألفوه ؛ فعمل أصـحاب القلوب الرقيقة جاهدين على نقض هـذه الصحيفة الجائرة ، فنقضت ومزقت ، وخرج المسلمون من الشـعب أكثر عزما ، وأقوى نفسـا وأعظم أملا ؛ خرج

المسلمون وقد عقدوا العزم على أن يعملوا على إظهار دينهم أو يهلكوا دونه .

وأقبلت الوفود لحج البيت المقدس ، فخرج النبى مع بلال وصهيب وعمار بن ياسر وخباب ، وبعض نفر من الضعفاء ، يعرض دينه الجديد على الوفود ، ويدعوهم للدخول فيه ، وحاولت قريش أن تحجز الناس عنه ، وأن تمنعهم من أن يستمعوا إليه ، وتحذرهم منه ، فكان فى محاولة المنع والتحذير دعاية له أية دعاية ، فما أحسوا أن كل ممنوع مرغوب ، وما دروا أن النفس تواقة إلى حب الاستطلاع ، فأقبل الناس عليه يستمعون إليه ، فذاع أمره وانتشر ، وزاد خطره ، وسمع العرب جميعا بأمر محمد ، وبدعوة التوحيد التى يرفع محمد بن عبد الله علمها ، فأقبلت الوفود يتساءلون عن النبأ العظيم .

وخرج الأقرع بن حابس التميمى ، وعيينة الفزارى ، وهما ممن أسلم من أشراف مضر ، وما كانا يفقهان ما فى الدين الجديد من تشريع حكيم ، وما كانا فى حاجة إلى أن يفقها ما فيه ، فما اعتنقاه إلا ليقال إنهما خرجا عما ألفه القوم ،وثارا على ما يعتنقون ، وفى ذلك ذيوع لصيتهما ، وانتشار لأمرهما ، وكان هذا كل ما يبغيان من دنياهما وأخراهما .

خرجا يمنيان النفس بالجلوس مع النبى ، فإذا ما أقبلت عليه الوفود ورآهما الناس ، عرفوا فضلهما ، وفى هذا إشباع لرغبة الظهور فيهما . ولكن لما اقتربا من مجلسه وجدا بلالا وصهيبا وعمارا وخبابا وبعض ناس من الضعفاء جالسين معه ، فأحسا انقباضا وضيقا وتبرما ، فما كانا يبغيان هذا ، وما كانا يرضيان عن أن يشاركهما أمثال هؤلاء الأعبد مجلس النبى ، فما لهذا جاءا ، وما لهذا أسلما . والتفت الأقرع إلى عيينة وقال :

— والله لا أدرى ما يحبب الرسول فى هؤلاء الأعبد ؟

— إنهم أصفياؤه .

— أما وجد خيرا منهم ؟

— إنهم لا يفارقونه أبدا : فبلال يسير معه أينما سار ، ويتبعه حيثما ذهب .

— أنشاركهم مجلسهم ؟.

— لا .

— علام عولت إذن ؟.

— سأطلب منه أن يقيمهم عنه إذا نحن جئنا .

— أيقبل ؟

— ولم لا يقبل ؟.

وانطلقا حتى إذا ما جاءا النبى مال الأقرع عليه وقال :

— نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب

فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحى أن ترانا العرب مع هــذه الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنــك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت .

فأطرق النبى قليلا ثم رفع رأسه وقال :

ـــ نعم .

وأمر النبى بلالا وصــحبه بالانصراف ، فانطلقــوا ، وانطلق بلال وقد طافت به ســحابة من الحزن ، وغمغم : « أيطردنا النبى من أجل هؤلاء السادة ؟ » . وطأطأ بصره ، وهم بأن يسترسل فى ألمه ، ولكن صاحت به نفسه : « صه يا بلال ، كيف يخطــر على قلبك هــذا ؟ ما طردكم النبى وما تخلى عنكم ، إنه ما فعل ذلك إلا ليرضى غرور هؤلاء السادة مرة ، وقد أرضاكم مرارا ، وشملكم بعطفه وبره وكرمه » .

وانطلق بلال ، وجلس الأقرع وعيينة مع النبى ، وأحسا زهو وفخرا ، وشاءا أن يستوثقا من دوام هــذا التفضيل فقالا :

ـــ اكتب لنا كتابا .

فدعا رسول الله عليا ليكتب لهما كتابا ، ودعا بصحيفة ولمــا تناولها تغيرت هيئته ، وتفصد العرق من جبينه وبان عليه الجهد ، فعلم على أنه يوحى إليه فصمت ولاذ الجميع بالسكوت ، حتى إذا ما عاد النبى إلى حالته الأولى رمى

الصحيفة من يده ورفض أن يكتب ما يطلبان ، وطلب دعوة بلال وأصحابه على الفور ، وانتظر أوبتهم بصبر نافد ، ولما أقبلوا بش لهم الرسول وقال :

ــ سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة .

وجلسوا إليه ، والتفت إليهم الرسول ورتل ما أنزل عليه : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » . فشاع السرور فى نفس بلال ، وفاضت روحه رضا واطمئنانا ، ودنا من النبى والبشر ظاهر عليه ، حتى أصبحت ركبته فوق ركبة النبى الحبيب .

جلس النبى مع بلال وأصحابه ما شاء الله أن يجلس ، ثم تركهم وقام ، وكان النبى سحابة يومه معهم ، وإذا ما أراد أن يقوم تركهم . فأنزل الله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . فأصبح رسول الله يصبر أبدا حتى يقوموا ، وكان بلال وأصحابه يعلمون ذلك ، فإذا ما بلغت الساعة التى يريد أن يقوم النبى فيها تركوه وانصرفوا ، فيقوم الرسول لقضاء حاجته .

الهجرة

شاع فى مكة خبر وفود نفر من الأوس والخزرج واجتماعهم بالنبى ، وإسلامهم ومبايعتهم له ؛ فاضطرب حبل قريش لذيوع الإسلام فى يثرب ، وزاد حنقهم ، واعتلجت بالحفيظة صدورهم ، فضاعفوا الأذى للمسلمين ؛ ووقعت على بلال ضروب المحن ، وصب عليه ألوان العذاب وهو صابر على الأذى . ورأى النبى ما نال أصحابه من الاضطهاد والتضييق فقال لهم :

— إن الله قد جعل لكم إخوانا ، ودارا تأمنون بها فهاجروا .

فأطرق بلال يفكر فيما قال الرسول : أيهاجر ويترك مكة التى تنفس أول ما تنفس هواءها ، ودرج أول ما درج على أرضها ، ورتع أول ما رتع فى فضائها ، ونبض قلبه أول ما نبض بالحب لها ؟ إنه يحبها ، تربطه بها ذكريات ، وإن لم تكن جميلة كلها ، طيبة كلها ، فهى ذكريات عزيزة عليه ، تجعلها قطعة من روحه ، وتجعله جزءا منها ، على الرغم مما ناله من عذاب على أرضها وما وقع عليه من اضطهاد بها . وغمغم : « إيه يـ مكة . يا أحب أرض الله

إلينا ، أكتب علينا أن نهجرك ، ونخرج منك مطرودين مشردين ؟ » .

ونهض وسار مطأطىء البصر ، شارد اللب ، يفكر فى أمر الرسول بالهجرة . واسترسل فى تفكيره ، ولم يقطع حبل استرساله إلا أصوات بعض الهازئين بالصابىء ، فرفع رأسه فألفى أمية وأبا جهل وأتباعهما يسخرون منه ، فانطلق مادا بصره أمامه ، ثم أجاله فيما حوله وتمتم : « لم يبق لنا بقاء فيك يا مكة ، فقد أصبحت دار هوان . تنكر لنا فيك يا مكة كل شىء ، تنكر الأهل والخلان . ضقت بنا يامكة ولم نضق بك ، فما المقام يا مكة ، أللبلاء والعذاب ؟ ما تجنيت يا مكة ولا تجنينا ، بل أهلك الذين تجنوا وأغلقوا أعينهم عن النور ، فما من الوداع بد ، فالوداع الوداع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » . وراح يضرب فى أحيائها وأسواقها يتزود منها بالنظرة الأخيرة ، ودخل البيت يطوف به فأحس بحزن ثقيل ، وراح يطوف وفى الفؤاد ضريم نار ، ترى أهذا طوافه الأخير بالبيت ؟ أهذا آخر عهده به ؟ أم كتب عليه أن يراه مرة أخرى ؟ وخرج مخلفا البيت وراءه ، فأحس غصة فى حلقه ، وكادت تفر دمعة من عينيه ، ولكنه تجلد وانطلق موطد العزم على الرحيل . وتقابل وعمار ابن ياسر ، وسعد بن أبى وقاص . فقال لهما :

— لم يبق لنا مقام فى مكة ، وسأهاجر الليلة .

فقال عمار : ألا تنتظر قليلا ؟.

فقال بلال : « ولم الانتظار ، وقد أمرنا رسول الله بالهجرة » ؟

فقال سعد : « خير البر عاجله ، سأخرج معك الليلة يا بلال » .

فقال عمار : « إن خرجتما الليلة صحبتكما » .

واتفقوا هم الثلاثة على الخروج ليلا والناس نيام ، تاركين بلدهم الظالم أهله ، ميممين شطر يثرب ، آملين أن يبدل الله خوفهم أمنا ، وأن يجعل الله لهم فيها مقاما محمودا .

وسجا الليل ، وهجع الكون ، وخرج بلال فى الموعد المضروب قاصدا المكان الموعود ، وسار على حذر يتلفت خلفه ، وسحب راحلته وهو يرجو ألا تحدث صوتا ينبه النوام إليه ، وانطلق يساوره القلق من أن يعثر به أحد فيفتضح أمره ، وينكشف سره ، فيتألب عليه القوم يمنعونه من الخروج . ولكن الليل كان حالك الظلام ، كأنما ارتدى ثوب الحزن لفراقهم ، وما كان لإنسان أن يبين مواقع قدميه ، فاطمأن بلال إلى ذلك ، وردت نفسه إلى هدوئها ، وبلغ المكان المقصود فألفى رفيقيه ينتظرانه . واكتمل عقدهم ،وامتطوا رواحهم ، وانطلقوا صامتين ،

فقد عقد الحزن ألسنتهم ، والتمعت الذكريات برءوسهم ، ذكريات مكة الحبيبة ، ذكريات الطفولة والشباب ، ذكريات الأهــل والخلان . لقــد خلفوا وراءهم كل شيء يربطهم بماضــيهم ، وانطلقوا إلى مســتقبل مجهــول لا يدورن ما يخبئه لهم من أحداث . وأحس بلال بلوعة لفراق مكة ، ووقع فى نفســه حزن ثقيل ، وانحدرت من عينيه دمعــة كفكفها بظهر يده . انطلقوا وما كان يدور بخلدهم أنهم عما قريب ســيعودون إلى مكة مرفوعى الرأس ، موفــورى الكرامة ، وأن صوت بلال الصداح سينساب فى أجوائها عــذبا معلنا انتهاء الوثنيــة ، وأن لا إله إلا الله وحــده لا شريك له .

انطلقوا ترفعهم النجاد ، وتحطهم الوهاد ، ويرعاهم الله حتى بلغوا يثرب ؛ فألفوا ناسا كراما ، يكنون لهم الحب ويفضــلونهم على أنفســهم وإن كانت بهم خصاصــة ، فاطمأنت نفس بلال ، وأحس راحة وهدوءا . فقــد تصرم أوان التعذيب والاضطهاد ، وانقضت أيام الشدة والضيق ، ولاح فى الأفق بصيص من النور ، سينتشر وينتشر حتى يغمر العالمين ، ويتألق حتى يخطف سنا ضوئه الأبصار .

ومرت الأيام بطيئــة ، وأحس بلال فراغا فى نفســه ، وشــوقا إلى النبى . إنه يحن إلى لقائه ، يتحرق شــوقا

لسماع صوته الهادىء الحلو ، فما يطيق النأى عنه أكثر من ذلك ، فكيف بالبعد ، وما تركه قط من يوم إســلامه إلى يوم هجرته ؟ متى يقبل النبى حتى ترد نفس بلال إلى طبعها ؟!

وأقبل عمر بن الخطاب ، فأسرع بلال إليه يستفسر منه عن النبى ، وكيف خلفه ؟ ومتى يوافيهم ؟ فأخبره عمر أنه سيكون بين ظهرانيهم عما قريب ، فانصرف بلال وهو يمنى النفس بقرب لقاء الحبيب .

وانتشر فى يثرب خبر خــروج النبى من مكة ، فوقع هذا الخبر فى نفس بلال موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، وشاع السرور فى نفسه ، وخرج مع القوم إلى ظاهر المدينة ينتظر طلعة النبى بصبر نافد ، وراح يمد بصره يكشف عن الطريق لعله يلمــح النبى فيرد إلى نفســه الصادئة لرؤياه طمأنينتها . ولكن النهــار قد تصرم وما ظهر فى الأفق أثر لقادم ، فآب إلى داره ، ينتظر انقضاء الليل ليخرج لانتظار الرسول .

ومرت الأيام ولم يقــدم ، فخالج القلق بلالا ، وراح يتســاءل عن سبب تأخر مقــدمه ، فلا يجد جوابا مطمئنا لتساؤله . وفى يوم اشتد حره انتظر مع المنتظرين ، ثم قفل الناس راجعين بعد أن صوبت إليهم الشمس سهامها الحامية وبقى بلال وحده . ولما سفعته الشمس ، وتحرقت منــه

الأقدام ، عاد على الرغم منه إلى الدار حيث اضطجع ، وفيما هو فى استلقائه إذ قرع أذنه صوت ينادى : « جاء نبى الله .. جاء نبى الله » . فانتصب واقفا ، وغمغم : « أحقا النداء ؟ أم صوت الوهم صك أذنى ؟ » . وارتفع الصوت ثانية : « جاء نبى الله .. جاء نبى الله » . فخرج بلال يعدو ، وراحت الإحساسات المتباينة تتزاحم فى صدره ، فقد امتلأ بالفرح ، وامتزج الفرح بالقلق ، ولمح راحلتين والناس حولهما ، فتفرس فى راكبيهما ، فعرف النبى وأبا بكر ، فهتف : « هو والله رسول الله ، هو والله رسول الله » . وأسرع فى عدوه ، يكاد يطير من شدة الفرح ، فقد أقبل رسول الله أخيرا ، فتم لبلال كل شىء : أمن ودعه ، واطمئنان فى العبادة ، وقوم ألان الله قلوبهم ، وقرب من النبى الحبيب .

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته ، وجاء المسلمون يسلمون عليه ، فأسرع بلال إليه ليطفىء نيران الشوق المندلعة فى صدره .

الحنين

قدم النبى وأصحابه إلى المدينة ، وكان الوباء منتشرا بها ، فأخذت الحمى أبا بكر الصديق وكثيرا من المسلمين . ولمـا قضيت صلاة العشاء ، دخـل بلال يزور أبا بكر ، وجلس عنده يجاذبه أطراف الحديث محاولا أن ينسيه بعض ما يقاسيه من الم الحمى . وانقضى من الليـل ثلثه وغفا أبو بكر ، فتسلل بلال إلى فناء الدار ورقد ، فمس النوم عينيه بأنامله الرقيقة فنام مطمئنا .

وانفلق عمود الصبح ، ونشرت الشمس ضياءها على الكون ، وغمرت بلالا وهو راقد مكانه لا يحس شـيئا ، فتململ فى رقدته ، وفتح عينيه ، فرأى النهار السـاطع ، فهب من نومه مذعورا ؛ لقد طلع النهار وما صلى الفجر ، وانتصب واقفا . فأحس ثقلا فى رأسه ، وتفككا فى أوصاله ، وخورا فى قوته ، وضعفا فى بدنه . ومد بصره أمامه فألفى دنيا تتراقص ، وعجزت ساقاه عن حمله فانهار وسقط على الأرض ، فرفع يده على رأسه ومررها على وجهه ، فأحس حرارة شديدة تنبعث منه ، فتيقن أن الحمى أخذته ؛ وحاول أن ينادى أحدا من الدار ، ولكنه أحس غشاوة على عينيه ،

وثقــلا فى رأسه ، فانكفأ على وجهــه ، ووضع ذراعه على الأرض ، وألقى برأسه فوقها وغاب عن الوجود .

وتصرمت الأيام وبلال وأبو بكر مريضـــان ، وأقبلت عائشـــة تعودهما كعادتها ، فألفت بلالا مضطجعا ، فاتجهت نحوه سألته :

وقالت له :

ـــ كيف تجدك يا بلال ؟.

ففتح بلال عينيه ثم أسبلهما ، فما استطاع أن يفتحهما طويلا ، ولم ينبس ، فتركته واتجهت إلى الدار ولمـــا رأت أباها قالت :

ـــ يا أبت كيف تجدك ؟.

فأنشد أبو بكر :

كــل امرئ مصـــبَّح فى أهله
والمـــوت أدنى من شراك نعله

وراح أبو بكر يذكر مكة وأيامه فيها ، ويحن إليها ، فأطرقت عائشة وغمغمت ، « إنها الحمى ولا ريب » .

وأقلعت الحمى عن بلال فترة ، فراحت نفسه تعمل ، وانتقل به خياله من يثرب إلى مكة ، من دار أبى بكر إلى دور بنى جمح ، من مهجــره إلى الوطن الحبيب ، فألفى روحه تسبح فى أجواء مكة ، تطوف بأسواقها ، وتزور بيتها المقــدس ، وتضرب فى دروبها فأحس شـــوقا إلى أرض

الوطن ، وهـواء الوطن . وتطلع إلى السـماء فغمغم : « لا ريب أن سماء مكة أجمل من هذه السماء » وملأ رئتيه بالهواء وتمتم وهو يزفر : « إن هواء مكة أنقى من هـذا الهواء » . وراحت الصور الحبيبة إلى نفسـه تتمثل أمام عينيه ، فرأى نفسه طفلا يلعب بمكة ، وتذكر رفقاء الطفولة فيها ، ثم رأى نفسه شابا يتأهب للخروج للتجارة ، ثم رأى نفسه مقبلا من رحلته إلى مكة ؛ يجيش صـدره بالشوق إليها ، وإلى أهلها . وتمثلت له صـورته وهو شاب بين شباب بني جمح ، يطربهم ويدخل السرور على نفوسهم ، فأحس حنينـا إلى الأوطان . وتذكر إسـلامه وتعذيبه ، فما خففت هذه الصورة القاتمة من لوعة الفراق ، بل زكت نار الشـوق في نفسه . إنه يشـعر بالحنين إلى مكة يملأ جنباته ويستولي على مشاعره ، إن هذا الحنين ليجيش في نفسه ، وليزداد ، وليفيض ويفيض حتى لا يستطيع له كبتا أو كتمانا ، فيرفع عقيرته :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بواد وحـولي إذخر وجليـل
وهل أردن يوما ميـاه مجنـة
وهـل يبدون لي شـامة وطفيل

وبلغ صوت بلال سمع عائشة ، فأطرقت وطافه بهـا خاطر ، أهذا من أثر الحمى أيضا أم هو حنين إلى الأوطان ؟

وغمغمت : « ما بال القوم يحنون إلى مكة هكذا سريعا ؟!» ونهضت وانصرفت ، ولما قابلت النبى قصت عليه ما رأت وما سمعت ، فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة .

الله أكبر .. الله أكبر ..

فى الهزيع الأخير من الليل ، نهض بلال وتوضأ وراح يتحين الفجر ، ولما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، دلف إلى المسجد ، فوجد النبى وكثيرا من المسلمين ينتظرون الصلاة ، ثم حان ميقاتها فصلوا . ولما قضيت جلس النبى والمسلمون حوله ، ثم أقبل بعض نفر بعد انقضائها ، فقال أحدهم للنبى :

ـ فاتنا الفجر يا رسول الله ، أما من وسيلة لجمعنا ؟.

فأطرق الرسول يفكر ، وقال آخر :

ـ إننا فى مسيس الحاجة إلى ما يدعونا إلى الصلاة ، فكثيرا ما نضطر إلى الانقطاع عن أعمالنا والبقاء فى المسجد حتى لا تفوتنا .

فقال أحد الحاضرين :

— ننصب راية عند حضــور الصلاة ، فإذا ما رآها الناس أعلم بعضهم بعضا .

فلم يعجب هذا الرأى النبى .

وقال آخر :

— لو رفعنا نارا ، رآها الناس جميعا وقاموا للصلاة .

فقال رسول الله :

— ذلك للمجوس .

وقال ثالث :

— شبور (بوق اليهود) .

فقال رسول الله :

— هو من أمر اليهود .

فقال رابع :

— نتخذ الناقوس .

— هو من أمر النصارى .

ودار النقاش بين المسلمين ، وأخيرا وافق رســول الله على الناقوس وهو كاره ، فقام الناس لنحتــه ليضرب به للمسلمين للصلاة .

وفى يوم من الأيام ، بينما كان رسول الله فى المسجد ، إذ أقبل عبد الله بن زيد متهلل الوجه ، منشرح الصــدر ، واتجه إلى النبى وقال :

— طاف بى يا رسول الله الليلة طائف ، فبينما كنت بين

النائم واليقظان ، مر بى رجل عليه ثياب خضر ، يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له : « يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ » . قال : « وما تصنع به ؟ » قلت : « ندعو به إلى الصلاة » . قال : « ألا أدلك على خير من ذلك ؟ » . قلت : « وما هو ؟ » قال : « تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

استمع رسول الله إلى رؤيا عبد الله ، فبان البشر فى وجهه ، وشاع الاطمئنان فى نفسه ، فلقد اهتدى المسلمون أخيرا إلى ما يدعوهم إلى الصلاة ، دون محاكاة أو تقليد ، ودون أن يخشوا أن يختلط عليهم الأمر إن دق الناقوس . لقد أصبح الأذان لهم وحدهم وبات الناقوس للنصارى لن يشاركهم المسلمون فيه . والتفت النبى إلى عبد الله وقال :

— « إنها رؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتا منك » .

ارتفع صوت بلال عذبا يدعو الناس للصلاة ، وانساب فى أجواء يثرب حلوا نديا ، وانسكب فى آذان القوم فهز أفئدتهم ، وخرجوا من دورهم مأخوذين ، ويمموا صوب

المسجد ليروا ما هذا الحدث الجديد ، ومن ذلك البلبل الصداح ؟

وبلغ أذان بلال سمع عمر بن الخطاب ، وكان راقدا فى داره ، فاعتدل وأرهف السمع وتساءل : « ما أسمع ؟ أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ إن ما أسمعه الآن هو عين ما سمعته فى رؤياى » وهب عمر من نومه ، وخرج من داره مسرعا ، واتجه إلى الرسول وهو يجر رداءه .

وما إن لمح النبى حتى هتف : « يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى » .

فقال رسول الله :

— فلله الحمد .

نهاية أمية وأبى جهل

استتب الإسلام فى يثرب وقويت شوكته ، وطابت الحياة للمهاجرين الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من بلاء واضطهاد ، ولكنهم لم ينسوا مكة ، وكانوا يحسون حنينا إليها ، وشوقا إلى آبائهم وأبنائهم وأقاربهم الذين خلفوهم فيها ، ولكم تمنوا أن يمكنهم الله من قريش ليقتصوا لأنفسهم . وما إن علم النبى أن أبا سفيان ابن حرب ، قد أقبل من الشام فى عير لقريش فيها أموالهم وتجارتهم ، حتى قال لأصحابه : « هذه عير لقريش ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » .

خرج المسلمون وبلال معهم ، وراحوا يعتقبون عيرهم ، ومر الزمن وطويت الأرض ، ونزلوا بالقرب من ماء بدر ، وكان أبو سفيان قد بلغه أن النبى استنفر أصحابه له ، فأرسل إلى مكة يستنفرهم إلى أموالهم . وبلغ النبى سير قريش لينقذوا أموالهم ، فاستشار الناس ، فتكلم أبو بكر وعمر ، ثم قام المقداد بن عمرو وقال : « يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا

قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » . فأشرق وجه النبى صلى الله عليه وسلم وسره هذا القول .

وعسعس الليل ، ونشر رداءه الأسود على المكان ؛ فبعث رسول الله على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر يلتمسون الخبر ، فوجدوا ساقيين فقبضوا عليهما ، وعادوا بهما حتى بلغوا النبى ، فوجدوه يصلى ، فسألوهما :

— سقاة من أنتما ؟

فقالا : « نحن سقاة قريش ، بعثونا نسقيهم من الماء » .

— كذبتما .

— لم نكذبكم القول .

— بل أنتما ساقيان لأبى سفيان .

— نحن سقاة قريش .

فضربوهما وأوجعوهما ، فصاحا :

— نحن سقاة أبى سفيان ، نحن سقاة أبى سفيان .

فتركوهما ، وأيقنوا أن عير قريش وتجارتهم أصبحت فى قبضة أيديهم ، وأتم رسول الله الصلاة وقال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما : وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله ، إنهما لقريش .

وأقبل رسول الله على الناس وقال :

ـ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

تمكن أبو سفيان من الانفلات بالعير ، ولحق قريشا بالقرب من بدر فأنبأهم بنجاة تجارتهم ، وطلب منهم العودة فلا موجب للقتال وإهراق الدماء ، ولكن أبا جهل عزم على أن يرد بدرا ، وعلى أن ينزل فيها ثلاثة أيام ، وقال :

ـ لا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

وارتفع الجدال بين القرشيين ، ونزلوا أخيرا على رأى أبى جهل ؛ وأتى المسلمون أدنى ماء القوم ، وبنوا حوضا على الماء وملأوه ليشربوا ولا يشرب الكافرون ، وبنوا عريشا للنبى واصطف المسلمون ينتظرون الإذن بالقتال ؛ وارتفع صوت النبى : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى » .

وأقبل الكفار حتى أصبحوا أمام المسلمين وجها لوجه ، فراح النبى يسوى الصفوف ، ووقف عبد الرحمن بن عوف بين ابنى عفراء ، وهما فتيان حديثا السن ، فراح يرمقهما بعين الاستخفاف ، ولم يأمن لمكانتهما ، وقال فى نفسه : « أما كان الأفضل أن أقف بين رجلين شديدين ؟ » وما كاد ينتهى من خواطره حتى مال أحد الفتيين عليه ، وقال له سرا من صاحبه :

ـ يا عمى أرنى أبا جهل .

ـ يا بن أخى ما تصنع به ؟

ـ عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .

فنظر عبد الرحمن إليه نظرة إكبار ، وأشار له إلى أبى جهل وقال :

ـ هو ذا يا بنى ينتقل بين صفوف القوم .

ـ ومال الفتى الثانى على عبد الرحمن وهمس :

ـ أرنى أبا جهل .

ـ وما تصنع به ؟

ـ أقسمت أن أقتله أو أموت دونه .

فقرت نفس عبد الرحمن لوقوفه بينهما .

وخرج الأسود من صفوف قريش : وقصد الحوض ليشرب منه أو يموتن دونه . وخرج حمزة إلى الأسود وعاجله بضربة قطعت ساقه ، فلم يثن ذلك الأسود عن عزمه ، وراح يزحف مقطوع الساق نحو الحوض ، فضربه حمزة ضربة قاضية فتدفق الدم على الأرض ، وثارت النفوس لرؤية سفك الدماء ، وخرج عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد من صفوف المشركين يطلبون النزال ، فندب النبى لهم عليا وحمزة وعبيدة بن الحارث ، ودارت المبارزة فهجم علىّ على الوليد هجوم الليث فقتله ، ومال حمزة على شيبة وشد عليه وطعنه طعنة تركته كأمس الذاهب .

واستمرت المبارزة بين عبيدة وعتبة ، فانضـم حمزة وعلى لصاحبهما وشدوا على عتبة فقتلوه .

وهمت قريش بالزحف ، فأمر النبى المسلمين أن يمنعوهم بالنبل من الاقتراب منهم ، ودخل النبى وأبو بكر العريش ، ثم خرج النبى يحرض القوم ، قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ثم أمر « شدوا » فهتف المسلمون :

ـ أحد .. أحد .

وهتف بلال معهم « أحد .. أحد » فتذكر يوم عـذب فى رمضاء مكة ، وما نزل به من بلاء ليترك دين محمد ويرتد إلى دين قريش ، وكيف كان يردد « أحد .. أحد » فيزداد القوم طغيانا . تذكر ذلك فثار الدم فى عروقه وهجـم على الأعـداء كليث عاد ، ومشى المسلمون إلى الكافرين مشى الوعول ، وتصافحت السيوف ففغرت المنايا أفواهها ، وشد ابنا عفراء على أبى جهل كصقرين كاسرين ، فعاجله أحدهما برمحه : وضربه الآخـر ضربة قاتلة جعلته يسـقط مضرجا فى دمه ، يجود بأنفاسه الأخيرة .

وراح أبطال المسلمين يعملون سـيوفهم فى المشركين . صناديد قريش صرعى ، وحاول الباقون النجاة من سيوف المسلمين فولوا الأدبار ، فكانت الهزيمة ، وتعقبهم المسلمون

ووقع فى الأسر ناس كثيرون ، وراح المســلمون يجمعون الغنائم .

ولم يستطع أمية بن خلف وابنه الفرار ، فوقفا ينتظران الأسر ، ومر عبد الرحمن بن عوف عليهما ، فلما لمحه أمية صاح :

ــ يا عبد عمرو .

فلم يجبه عبد الرحمن ، فتذكر أمية ما اتفقا عليه فى مكة من دعوته بعبد الإله ، فهتف :

ــ يا عبد الإله .

ــ نعم .

ــ هــل لك فىّ ، فأنا خير لك من هــذه الأدرع التى معاك .

ــ نعم ، هلم إذا .

فطرح الأدرع من يده ، وأخذ بيــده ويد ابنه على ، وراح يمشى بهما ، وفيما هم سائرون قال أمية :

ــ من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره ؟

ــ ذلك حمزة بن عبد المطلب .

ــ ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل .

واستأنفوا سيرهم ، ولمحهم بلال ، فما إن رأى أمية ، سيده بالأمس ، الذى نكل به نكالا شديدا ، وعذبه عذابا رهيبا ، حتى ثارت نفسه ، وتحركت رغبة الانتقام فيــه ،

فأسرع نحوهم وقد شهر سيفه ، ولما أصبح أمام أمية صاح :
— رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا .
وهم بقتله ، فقال عبد الرحمن :
— أى بلال داع أسيرىَّ
— لا نجوت إن نجوا .
— أتسمع يا بن السوداء ؟
— لا نجوت إن نجوا .
وحاول بلال قتلهما ، ولكن عبد الرحمن راح يذب عنهما .. أيتركهما بلال بعد أن وقعا فى يده ، أيتركهما بعد أن ساقهما الله إليه ؟. لا ، ليقض عليهما وإن كان فى ذلك إغضاب عبد الرحمن ، فصاح بأعلى صوته :
— يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا .
فأسرع الأنصار إليهم ، وأحاطوهم ، ثم جعلوهم مثل المسكة . وراح بلال يصيح وعبد الرحمن يذب عن أسيريه ، فشهر الأنصار سيوفهم ، وضرب رجل منهم على بن أمية ، فسقط يخبط فى دمه ، فصاح أمية صيحة المفجوع :
— ولدى .. ولدى .
والتفت إليه عبد الرحمن وقال :
— انج بنفسك ولا نجاة فو الله ما أغنى عنك شيئا .
فأسرع أمية يطلب النجاة ، واقتفى بلال أثره ، ولما لحق

به طعنه فسقط على الأرض ، وأقبل الأنصار وهبروه بأسيافهم ، فالتفت إليه بلال وقال :

ـ ما أضعفك الآن يا أمية .

والتفت عبد الرحمن بن عوف إلى بلال وقال :

ـ فجعتني في أسيريّ يا بلال .

فنظر بلال إليه نظرة كلها عتاب ، فطأطأ عبد الرحمن رأسه ، فقال له بلال .

ـ عوضك الله يا عبد الرحمن خيرا .

خازن الرسول

تبدد الغبار ، وانجلت معركة بدر عن فرار أهل مكة ؛ فانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها . وكانت هذه الغنائم أول ما وقع فى أيديهم فراحوا يتساءلون لمن تكون ؟ قال الذين جمعوها : « نحن جمعناها فهى لنا » . وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته : « نحن والله أحق بها فلولانا لما أصبتموها » . وقال الذين كانوا يحرســون النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أنتم ولا هم أحق بها منا ، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله كرة العدو فقمنا دونه » . فأمر النبى برد كل ما فى أيديهم من الغنائم ، وأمر أن تحمل إلى أن يرى فيها رأيا ، أو يقضى الله فيها بقضائه .

ونزلت الآية : « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فأخرج الخمس للنبى وحمله بلال ، ووزع الباقى على المحاربين . فأصبح بلال خازن الرســول ، وكان النبى يرسل له المسلم العائل فيطعمه ويكسوه . وفى يوم دخل

النبى صلى الله عليه وسلم على بلال وعنده صرة من تمر ؛ قال :

ـ ما هذا يا بلال ؟

ـ يا رسول الله ، ادخرته لك ولضيفانك .

ـ أما تخشى أن يكون له بخار فى النار ؟ أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

***

وقف اليهودى يرقب أسراب الطير العائدة إلى أوكارها قبل هجوم الليل ، وأخذ يستمع إلى زقزقة العصافير التى هتكت غلالة السكون ، ومد بصره فرأى قرص الشمس المتوهج يغوص فى الأفق البعيد ، ويختفى شيئا فشيئا حتى غاب عن عينيه ، وأخذت زقزقة العصافير تخف وتخف حتى تلاشت ، فسيطر السكون على المكان ثانية ، وأحس اليهودى نشوة تشيع فى نفسه . وارتفع صوت بلال نديا يدعو إلى صلاة المغرب فمس أذنى اليهودى مسا رقيقا ، ونفذ إلى قلبه وعبث بأوتاره ، فشعر اليهودى بموجة من الخشوع الممتزجة بالرهبة تجتاحه وحاول أن يصم أذنيه عن سماع هذا النداء ولكن لم يقدر على مقاومة رغبته فى الاستمتاع بعذوبة صوت ذلك البلبل الصداح ، فأطرق برغمه يستمع إلى الأذان . وما إن انتهى بلال من أذانه حتى أنكر اليهودى

على نفسه استسلامها وغمغم : « ما كان ينبغى لى أن أعيره سمعى ، فإن فى صوته لسحرا ، وفى دعوته لفتنة » : فهتفت به نفسه : « لكم رددت هذا القول عقب أذانه ، ثم إذا ما عاد إلى الأذان أطرقت وأعرته السمع . أما من وسيلة تستحوذ بها على هذا الحبشى فتحرم المسلمين منه ، وتأمن على إخوانك من أن يفتنهم فى دينهم ؟ » . وأطرق يفكر فيما يمكنه من استرقاق بلال ، وإعادته عبدا كما كان قبل الإسلام حتى يستريح منه ، ويمنع هذا الصوت الفتان من أن يجلجل خمس مرات فى اليوم يدعو إلى محمد وإله محمد . وخطرت له فكرة اطمأن إليها ، فبرقت أسارير وجهه ، وعزم على إنفاذها .

راح اليهودى يرقب بلالا ، وفى يوم من الأيام لمحه مقبلا وبرفقته رجل من المسلمين رقيق الحال ، فتيقن أن بلالا ما قدم إلا ليشترى البردة والشىء ، فيكسو المسلم الفقير ويطعمه كما أمره النبى فاعترض اليهودى بلالا وقال له :

ـ يا بلال إن عندى سعة ، فلا تستقرض من أحد إلا منى .

فأطرق بلال ، وراح اليهودى ينصب فخاخه ، قال :

ـ سأقرضك كل ما تحتاج إليه .

ـ أجل .

— إنى يا بلال أثق بك ثقة لا حد لها ، وإلا لما عرضت عليك هذا ، ولكن تعلم أننا معشر اليهود حريصــون على المال ، فلا نقرضــه لأحد ما لم يكن تحت يدنا ما يضــمن السداد ، أعندك ما ترهنه عندى ؟

— لو كان عندى شيء ما استقرضت .

— لن أضع يا بلال شروطا تعجز عن تنفيذها ، فإنى أثق بك . فما علينــا لو اتفقنا على أن آخــذك مقابل الدين إن امتنعت عن السداد ؟

فأطرق بلال وقال اليهودى :

— إنى على يقين من أنك لن تمتنع عن السداد ، وما هذا إلا مجرد شرط لإرضاء ناحية الحرص فينا .

فصمت بلال ثم قال :

— اتفقنا !

— ومتى السداد ؟

— فى نهاية الشهر .

— إن عجزت عن السداد سآخذك مقابل الدين .

وضحك اليهودى ، وقدم المال إلى بلال أمام عصابة من التجار . وانصرف بلال ، وشــاع الرضى فى نفس اليهودى فقد كان يعلم أن محمدا لا يملك ما يوفى الدين ، وأن بلالا لن يستطيع الدفع قبل تصرم الشهر . لقد وقع المؤذن الحبشى فيما نصب له من فخاخ .

وتصرمت الأيام ، واختفى القمر من السماء إيذانا بقرب انقضاء الشــهر ، والتأهب لاستقبال مولد شهر جديد ، وقام بلال ليؤذن بالصلاة ، فإذا اليهودى مقبل فى عصــابة من التجار ، وما إن لمح بلالا حتى قال :

ــ يا حبشى .

ــ يا لبَّيه .

ــ أتدرى كم بينك وبين الشهر ؟

ــ قريب .

ــ إنما بينك وبينه أربع ليال .

فأطرق بلال وقال اليهودى :

ــ أتستطيع السداد الآن ؟

ــ لا .

ــ إن لم تسدد قبل نهاية الشهر فسآخذك بالذى لى عليك ، فإنى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك . وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا ؛ فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .

فأطرق بلال ولم يحر جوابا ، ووقع فى نفسه حزن ثقيل ، وانصرف اليهودى وعصابة التجار ، وبقى بلال وحــده ساهما ، شارد الفكر .. واسترسل فى أحزانه ، أكتب عليه أن يعود عبدا كما كان ؟ ، أيتركه المسلمون لذلك اليهودى يفعل به ما يشاء ؟ ، ولكن لم كل هذا الحزن وهو لم يقابل

النبى ولم يعرض عليه الأمر ؟ ، إنه يعلم أن النبى ليس عنده ما يقضى عنه ، فهو أعلم الناس بما عنده ، فهو خازنه ، وهو المتصرف فى أمواله ؛ وتذكر بلال أنه لم يؤذن بعد ، فقام وأذن ، ولما قضيت الصلاة رجع رســول الله إلى أهله ، فاستأذن بلال عليه ، فأذن له ، فدخل ، ولمـا رأى النبى صلى الله عليه وسلم قال :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؛ إن اليهودى الذى ذكرت لك أنى كنت أستدين منه يطلب السداد أو أخذى بالذى على ؛ وليس عندك ما تقضى عنى ولا عندى ؛ وهو فاضحى ، فأذن لى أن آتى بعض هؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا ، حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عنى .

فأطرق الرسول ولم يأذن له ، فخرج بلال حزينا يفكر فى أمره ، وانطلق حتى أتى منزله ووقع فريسة لأفكاره ، وراح سيال الفكر ينتقل به من يثرب إلى مكة ، فرأى أيام استرقاقه وتعذيبه ، فازداد حزنه وغمغم : « أبعد أن أتنسم الحرية أعود لذل الرق ؟ » واتجه إلى فراشه آملا أن يطوقه ملاك النوم بذراعيه فيريحه من آلامه وأحزانه ، فنام مستقبلا بوجهه الأفق ، وجعل سيفه وقرابه ورمحه ونعله عند رأسه ، وغفا قليلا ، ثم هب مذعورا فرأى عليه ليلا فنام ، وما إن استأنف نومه حتى انتبه . وظل على هذا الحال طوال الليل حتى انفلق عمود الصــبح الأول ، فأراد أن ينطلق ، فإذا

بصوت يشق السكون المخيم على المكان ، يا بلال ، يا بلال .. أجب رسول الله . فانطلق بلال ، وراحت نفسه تعمل طوال الطريق ، وأخذ يتساءل « ترى أجاء الفرج من عند الله ؟ » وبلغ دار النبى فاستأذن ووقف ينتظر الإذن له ، وكان الأمل والخوف يتنازعانه ، ثم أذن له فدخل ، فابتدره النبى :

— أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك .

— الحمد لله .

— ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟

— بلى .

— فإن لك رقابهن وما عليهن فاقبضهن إليك ثم اقض دينك .

خرج بلال والفرح يملأ نفسه ، وأسرع نحو الركائب فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن إلى الرسول عظيم من العظماء فحط بلال عنهن أحمالهن ، ثم علفهن وهو يكاد يطير بهن فرحا ، ثم عمد إلى تأذين صلاة الصبح . ولما قضت الصلاة خرج إلى البقيع ، فجعل إصبعه فى أذنه وصاح :

— من كان يطلب من رسول الله دينا فليحضر .

وأخذ بلال يعرض ويبيع ويقضى . وأقبل اليهودى فقال بلال :

— خذ دينك ولن أستقرض منك أبدا .

ومكر اليهودي مكرا ومكر الله مكرا ، فعاد اليهـودي يجر أذيال الخيبة والفشل ، واستمر بلال يبيع مما رزقه الله حتى لم يبق على رسول الله دين فى الأرض ، وبقى مع بلال أوقيتان من ذهب ، فانطلق إلى المسـجد وقد ذهب عامـة النهار ، فإذا رسول الله فى المسجد قاعد وحده ، فلما رأى بلالا قال :

— ما فعل ما قبلك ؟

— قد قضى الله كل شىء كان على رسول الله ، فلم يبق شىء .

— فضل شىء ؟

— نعم أوقيتان .

— انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما .

فانتظرا فى المسجد أن يأتيهما محتاج ، ولكن لم يأتهما أحد . فبات الرسول فى المسجد حتى أصبح الصبح ، وظل فى المسجد طوال اليوم التالى ينتظر حضور محتاج ليكسوه ويطعمه بما عنـده ليستريح منـه ، حتى لا يكون كانزا للذهب ، وحتى لا يـكون ممن قال الله فيهـم : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعـذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بهـا

جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هـذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

جاء آخر النهار ، وجاء إلى المسجد راكبان محتاجان ، فأمر النبى بلالا أن ينطلق بهما ويكسوهما ويطعمهما بما عنده ، ولما صلى النبى العتمة دعا بلالا وسأله :

ـ ما فعل الذى قبلك ؟

ـ قد أراحك الله منه .

ـ الحمد لله .

الى مكة

أطرق بلال يفكر ، فراحت الصور تمر فى خياله ، فرأى نفسه يوم هاجر من مكة ، جحيم الوثنية ، إلى يثرب ، مهد الهدى والرشاد ، ثم رأى نفسه يخوض غمار الحروب لرفع كلمة الله . رأى نفسه يوم أحد وتذكر ما أصابهم من بلاء . ثم رأى نفسه يحمل التراب على عاتقه مساهما فى حفر الخندق يوم تحزب الكفار عليهم ، ورأى نفسه مع النبى يقتص من بنى قريظة لنقضهم العهد ، ويحارب بنى المصطلق من خزاعة ، وتذكر يوم انتصر فى خيبر . لقد دارت عجلة الزمن ، وانقضت السنون والأيام ، وما انقضت الحرب الناشبة بين الكفر والإيمان : حاول الكفار أن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن شاء الله أن يتم نوره ، فانتصر المسلمون على من حولهم وقويت شوكتهم ، وتوطد الأمر لهم فى يثرب ولم يبق أمامهم إلا مكة ، فإذا أذل الله قريشا ، ومكنهم من إخضاع مكة ، ظهرت كلمة التوحيد ، ودان العرب لله وحده . وأحس بلال شوقا إلى الوطن الحبيب ، مهوى الفؤاد ، فتمتم : « يا مكة يا أم القرى ، ترى أتكتحل عيناى برؤياك

ثانيا ؟ » . وأطرق وهو لا يدرى أن مكة قد أصبحت منه قاب قوسين أو أدنى .

جلس النبى فى المسجد ، وجلس صحبه حوله ، وراح يفضى إليهم برؤيا رآها : « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين : فاشحذوا عزمكم للسفر ، وخذوا أهبتكم للرحيل ، ولتكن غايتكم العمرة والطواف » .

سمع بلال ذلك ، فاطمأنت نفسه ، واهتز طربا ، واجتاحه السرور ، فقد أحيت رؤيا النبى موات الأمل فى نفسه . سيدخل مكة وسيستنشق عبير تربتها ، وسيطوف ببيتها ، وسيهرول بين الصفا والمروة ، أجل عما قريب ستنطفىء نار الشوق المتأججة فى صدره ، هذه رؤيا النبى ، ومتى لم تتحقق رؤياه ؟ إنكل ما رأى جاء مثل فلق الصبح وضوحا . سيرى بلال مكة ، وسيضرب فى أحياء بنى جمح حيث رأى النور أول ما رأى ، فيالفرحه ويا لسروره !.

وفى صبيحة اليوم التالى ، انضم بلال إلى إخوانه الميممين صوب مكة : وانطلقوا والأمانى العذاب تتماثل لهم فى شكول وألوان ، انطلقوا ترفعهم النجاد وتحطهم الوهاد ، ويسوقهم الأمل ، ويدفعهم الإيمان ، ولمحوا رجلا مقبلا نحوهم ، ولما بلغهم اتجه إلى النبى وقال :

ــ ترامى إلى قريش خبر مسيرك يا رسول الله ، وهبط عليهم حديث رؤياك .

ــ هيه يا بشر ! وبماذا قابلوا هذا الخبر ؟ وماذا أعدوا للقاء ؟

ــ إنهم يا رسول الله قد خرجوا ومعهم العوذ المطافيل ، ولبسوا جلود النمور ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخل عليهم مكة أبدا ، وهذا خالد بن الوليد ، وهو من يعدونه بهمتهم ، وفارس حلبتهم ، قد خرج يستقبلك بخيله ، ولعله الآن فى كراع الغميم .

ــ يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ؛ وماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد عنى هذه السالفة . من يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم ؟.

فتقدم رجل كان بصيرا بالطريق ، ثم أمسك بخطام القصواء ناقة الرسول ، وانطلق فى طريق والناس تتبعه حتى خرج بهم إلى طريق سهل فسيح ، واستأنفوا سيرهم ، وفجأة امتنعت ناقة الرسول عن السير ، وزجرها الرسول للقيام فلا تقوم . وقال المسلمون : « خلأت القصواء » وبلغ ذلك

الرسول فقال : « والله ما خلأت وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . والذى نفسى بيده لا تسألنى قريش خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » .

ومشت السفارات بين محمــد وقريش ، وأخيرا اتفق محمد والقرشيون على أن يرجع المسلمون بغير عمرة هذا العام ، فإذا كان العام المقبل ، جاء النبى وأصحابه إلى مكة ، وقد خلتها قريش ، فيقيمون فيها ثلاثا ، يقيمون وليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القرب ، وأن تضع الحرب بين الفريقين أوزارها عشر سنوات ، ومن جاء المسلمين من قريش يرد عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا يلزمون رده ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد دخل فيه .

علم بلال بصلح الحديبية هذا ، فعلا وجهه الوجوم ، وضاق صدره ، فقد انهارت آماله ، فلن يعتمر هذا العام ، ولن يرى مكة ، ولن تنطفىء نار الأشواق التى تعتمل فى صدره . ودار الحديث بين المسلمين : حديث كله مرارة ، وكله ألم ، وراحوا يتساءلون : « كيف قبل النبى هذا ؟ كيف قبل النبى أن يرد من جاء مسلما ، وأن يترك من جاء قريشا مرتدا ؟ لقد بلغ القرشيون ما يريدون » .

ولم يطق عمر هذا فانطلق إلى النبى وقال :

ــ ألست برسول الله ؟.

ــ بلى .

ــ أولسنا بالمسلمين ؟

ــ بلى .

ــ أوليسوا بالمشركين ؟.

ــ بلى .

ــ فعلام نعطي الدنية فى ديننا ؟.

ــ أنا عبد الله ورســــوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .

ــ أولست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟.

ــ بلى ، أفأخبرتك أن تأتيه هذا العام ؟.

ــ لا .

ــ فإنك آتيه ومطوف به .

وكتب صلح الحديبية ، وقفل المسلمون عائدين إلى المدينة ، وفى قلوبهم شوق إلى البيت ، وعطش إلى مكة مهوى الفؤاد .

لا إله إلا الله

انتشر الخبر فى يثرب أن قريشا نقضت العهد ، وفجرت فى اليمين ، فقد أعانت حليفها على حليف محمد ، أعانت بكرا على خزاعة ، وانتشر خبر استنصار عمرو بن سالم النبى ونصر النبى إياه ، فشاع البشر ، فقد كان المسلمون يحسبون أن صلح الحديبية كان نصرا لقريش لا لهم ، وأنه قد كبلهم وحد من حريتهم .

وأرسل النبى رسله فى أنحاء شبه الجزيرة ليكونوا على استعداد لتلبية ندائه ، ووفدت القبائل من مزينة وغفار وأشجع وسليم ، والتأم جيش المسلمين وأمرهم الرسول بالجد إلى مكة ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى لا تقف من سيرهم على نبأ .

علم بلال أنهم ميممون صوب مكة لفتحها ، مكة التى خرجوا منها مضطهدين هاربين بدينهم ، مكة التى كانت تتراءى له فى يقظته ومنامه ، مكة التى نبض قلبه بحبها أول ما نبض ، فعلاه البشر ، واكتنفه السرور ، وهاجت لواعج الشوق فى نفسه ، فأغذ السير مع الجيش المنطلق إلى

الأرض المقدسة ، معللا النفس بقرب مشاهدة الوطن الحبيب .

وعسكر الجيش بالقرب من مكة ، واندلعت النيران ، فخرج أبو سفيان ليرى ما الخبر ؟ فرأى نيرانا وعسكرا ما رأى مثلها من قبل قط ، وقابل العباس عم النبى فسأله عن الخبر فقال العباس :

ـ هذا رسول الله فى الناس ، واصباح الناس إذا دخل مكة عنوة .

فانزعج أبو سفيان لما رأى ، وأيقن ألا قبل لقريش بهذا الجيش الزاحف . فقابل النبى وأسلم ، وذهب صائحا فى مكة :

ـ يا معشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن .

فدب الفزع فى النفوس ، وأسرع الناس إلى المسجد والدور ، ووقف النبى فوق ذى طوى ، وتطلع إلى مكة ، فألفاها لا تقاوم ، فسجد فوق راحلته شكرا لله رب العالمين .

ودخل بلال مكة مع النبى ، وراح يملأ صدره بهوائها ، ويمتع عينيه بمشاهدتها . لقد كان بلال ظمآن إلى مكة ، فلما دخلها بات مبرود الغليل . وطاف النبى بالبيت سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه اتجه إلى مكة فألفى الباب

مغلقا ، فأمر بلالا أن ينطلق إلى عثمان بن طلحة ليحضر المفتاح ، ووقف على باب الكعبة وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . وعاد بلال وعثمان فقال النبى لعثمان : « هات مفاتيحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » . وفتح الباب ودخل النبى وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة ؛ وأغلق الباب ووقف بلال خلفه ، وصلى النبى ركعتين ثم اتجه إلى الأصنام ، فرأى صورة الملائكة ، رأى إبراهيم مصبورا فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : « قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام . ما شأن إبراهيم والأزلام؟! ثم رتل : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » . وجعل يطعن الأصنام بعود فى يده ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

وفتح باب الكعبة ، فاندفع الناس إليها ، ودخل أبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام ، وجلسوا بفناء الكعبة ، وسأل النبى الناس :

ــ ما ترون أنى فاعل بكم ؟

ــ خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

ــ فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم أمر بلالا أن يؤذن ، فقام ليعتلي الكعبة ، فتطلع إليه الناس مذهولين ، وراحوا يتساءلون : « ما هذا العبد وكيف يجرؤ على أن يفعل هذا ، فما اعتلى البيت المقدس أحد من قبل ؟! » وكان بعض أقارب سعيد بن العاص واقفين فقالوا : « لقد أكرم الله سعيدا إذ قبضه قبل أن يسمع هذا الأسود على ظهر الكعبة » . واتجه الناس إلى أشرافهم يستنفرونهم ، فقال رجل من قريش للحارث ابن هشام :

ـ ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

ـ دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

واستوى بلال على الكعبة ، وانتظر القرشيون ما سيحل به من غضب الآلهة ، ولكن صوت بلال انساب عذبا ، فأطرق الجميع كأن على رءوسهم الطير . وسيطر الهدوء على المكان ، ومس صوته أوتار القلوب فعبث بها ، وارتسم الخشوع على وجه المسلمين ، وأحس القرشيون رهبة ، وجلجل صوت بلال فى أجواء مكة معلنا انقضاء الوثنية ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

زواج بلال

هبت ريح الصبا فأنعشت القلوب ، ولفحت وجه بلال وهو فى طريقه إلى المسجد ليأخذ عطاءه ، فأنعشت فؤاده ، وأحس نشوة وحاجة إلى من يكمله ، إلى من يبثه شوقه ، إلى زوجة يسكن إليها . وبلغ المسجد فأخذ عطاءه وفكر فى أن يبقيه ، ولكن مر بخاطره ما دار بينه وبين رسول الله ، تذكر يوم دخل عليه الرسول ووجد عنده بعض أشياء فقال له : « يا بلال مت فقيرا ولا تمت غنيا » . فقال : «وكيف لى بذلك ؟» قال : «ما رزقت فلا تخبىء وما سئلت فلا تمنع » فقال : « يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ » قال : « هو ذاك أو النار » تذكر بلال ذلك فأخذ عطاءه وخرج لينفقه فى سبيل الله .

وراح بلال يضرب فى أنحاء يثرب يبحث عن محتاج يتصدق عليه .

وفى سوق من أسواقها لمح أخاه مقبلا نحوه ، فتوقف عن السير ، ولما اقترب أخوه منه قال له بلال :

ـ من أين ؟.

ـ من اليمن .

ــ وما تفعل هناك ؟.

ــ أخطب .

ــ وما تم فى خطبتك ؟.

ــ زعمت أنى من العــرب ، وخطبت امرأة من اليمن ، فلما سألونى عن قبيلتى وحسبى ونسبى كاشفتهم بالحقيقة ، فقلت لهم : « إنى حبشى ولد فى مكة ، وفى قبيلة بنى جمح ، وإنى أخــو بلال بن رباح » . فقــالوا لى : إن جاء بــلال زوجناك . فجئتك أطلب منك الرحيل معى إلى اليمن .

ــ سأنطلق معك بعد استئذان الرسول .

سجى الليل ، فامتطى بلال وأخوه راحلتيهما ، وخرجا من يثرب ، وأغــذا السير منطلقين صــوب اليمن ، وراحا يطويان الأرض ، ويستقبلان الليل والنهار حتى بلغا اليمن والعتمة ، فرغب أخو بلال فى أن ينطلقا من فورهما إلى دار من يرغب فى مصاهرتهم ، ولكن بلالا قال له :

ــ لم هــذه العجلة ؟ ولم نطرق أبواب الناس ليــلا ، فلنهجع الليلة ولنذهب مع الصباح .

وهجعا ليلتهما ، ولما فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السرج ، انطلقا إلى دار الخطيبة ، فلما بلغاها استأذنا فى الدخول فأذن لهما . قال بلال :

ــ أنا بلال بن رباح ، وهذا أخى ، امرؤ سوء فى الخلق

والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شـئتم أن تدعوا فدعوا .

وانتهى ما جاء بلال من أجله واقترب وقت الصـلاة ، فاتجه إلى المسجد ، وجلس ينتظر الأذان . وفيما هو فى مجلسه إذ هتف به هاتف : « لم لا تتزوج ؟ وما يمنعك من أن تتم دينك ؟ قد جاء الله بالغنى وصرت حرا بعد أن كنت عبدا ؟! » فأطرق يفكر ، وأخيرا عقد العزم على الزواج .

وقضيت الصلاة ، وانتشر الناس فى الأرض ، وخرج بلال يضرب فى الحى موطنا النفس على البحث عن زوجة تصلح له ، فراح يستقصى ممن يعرف عن زوجة طيبة فهدوه إلى هند الخولانية ، فذهب إلى أهلها يطلبها .

دخل بلال دار آل هند ، ولما استقر به المقام قال :

ـ أنا بلال بن رباح ، صاحب رسـول الله ؛ عبد من الحبشة ، كنت ضالا فهدانى الله ، وكنت عبدا فأعتقنى الله ؛ إن تنكحونى فالحمد لله ؛ وإن تمنعونى فالله أكبر .

ـ أمهلنا حتى نسأل رسول الله .

وترك بلال اليمن وعاد إلى يثرب ؛ وفى يوم من الأيام ، أتى آل هند إلى الرسول فى المسجد فسلموا وجلسوا ثم قالوا :

ـ نحن من اليمن وقد جئنا لنسألك عن بلال ، إن بلالا يرغب فى أن يتزوج هند أختنا ، وقد أمهلناه حتى نأتيك ؛

وإنا نحب أن نسمع رأى رسول الله فيه .

ـ أين أنتم من بلال ، أين أنتم من رجل من أهل الجنة؟

وعلم آل هند مكانة بلال ، وحب الرسول له ، فوافقوا على أن ينكحوه إياها .

تزوج بلال هندا ، ومرت الأيام ، والصفاء يرفرف على الزوجين والهناء يحتل الدار . وفى يوم جلس بلال مع زوجه يجاذبها أطراف الحديث ، وذكر بلال حديثا عن النبى ، فلم تصدقه زوجته وكذبته ، فغضب وثار ، وعقد ما بين حاجبيه وترك الدار ، وقابله الرسـول ففطن إلى غضبه وثورته ، فسأله عما به ؟ فأفضى إليه بما دار بينه وبين زوجه ، فأتى النبى زوجة بلال وقال لها :

ـ أثم بلال ؟

ـ لا .

ـ فلعلك غضبى على بلال ؟

ـ لا . إنه يحبنى كثيرا .

ـ ما حدثك عنى بلال فقد صدق . بلال لا يكذب ، فلا تغضبى بلالا . فلا يقبل منك عمل ما أغضبت بلالا .

وعاد بلال إلى داره ، فتقدمت منه هند ، واعتذرت إليه ، فصفت نفسه ، وانقشعت تلك السحابة الداكنة التى خيمت على الدار الصغيرة برهة ، وعاد الصفاء إلى الدار ، ورفرفت السعادة بجناحيها عليها .

محمد رسول الله

أذن بلال بالصلاة ، وانتظر الناس خروج الرسول ليؤمهم ، ومرت لحظات ولم يخرج فأحس الناس قلقا ، فقد كانوا يعلمون أن النبى يشكو ألما فى رأسه . وأخذوا يتلفتون نحو الباب ، ولكن الرسول لم يظهر . فاتجه بلال إلى الباب وطرقه ، فأقبلت بريرة خادم النبى فقال بلال :

ــ أنبئى مولاك أن الناس تنتظره .

فاتجهت بريرة إلى النبى ــ وكانت عائشة وفاطمة بجواره ــ وقالت :

ــ قد دعا بلال إلى الصلاة .

فقال النبى :

ــ أوصلى الناس ؟

ــ لا . هم ينتظرونك يا رسول الله .

ــ ضعوا لى ماء فى المخضب .

وحاول النبى النهوض ولكنه ناء مغشيا عليه ، فأسرعت فاطمة إليه فى جزع وقالت :

ــ إنه ينوء .

وهرولت عائشة وصاحت :

ــ أدركونى قد أغمى عليه .

وأخذت عائشة وفاطمة تمرضانه . ولما أفاق سأل :

ــ أصلى الناس ؟

فقالت عائشة :

ــ لا تترك فراشك يا رسول الله ، مر من يصلى بالناس .

ــ مروا أبا بكر فليصل بالناس .

وأسرعت بريرة نحو الباب صادعة بالأمر ، وقالت لبلال :

ــ قال رسول الله : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

راح بلال يبحث بعينيه عن أبى بكر فلم تقع عيناه عليه ، ولكنه رأى عمر ، فأسرع إليه وطلب منه أن يصلى بالناس ، فنهض عمر وكبر ، وبلغ تكبيره آذان النبى فسأل :

ــ صوت من هذا ؟

فقالت فاطمة :

ــ هذا عمر بن الخطاب .

فقال النبى :

ــ لا . لا . يأبى الله ذلك والمسلمون . يأبى الله ذلك والمسلمون .. أين أبو بكر ؟. أين أبو بكر ؟

فقالت عائشة :

ــ لعله غائب .

ـ ضعوا فى المخضب ماء حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم .

وأسرعت بريرة وأبلغت من فى المسجد برغبة الرسول . فحدث هرج . وعلم عمر أن النبى لم يأمره بأن يؤم الناس ، فاتجه إلى بلال يعاتبه ، فقال عمر :

ـ ويحك ما صنعت بى يا بلال ؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله أمرك بذلك ، ولولا ذلك ما صليت بالناس .

ـ والله ما أمرنى رسول الله بذلك ، ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس .

ودخل أبو بكر من باب المسجد ، فأسرع إليه بلال وأمره أن يصلى بالناس ، فأم أبو بكر المسلمين ، وابتدأت الصلاة ، وخرج النبى إلى المسجد معصوب الرأس ، فلما لمح الناس النبى سرت فيهم موجة من الفرح ، وانتشت نفوسهم لرؤياه بارئا ، وأحس أبو بكر حركة بين الصفوف ، فعلم أن رسول الله قد أقبل ، فتراجع ليخلى له مكانه ، ولكن النبى دفعه بيده ليبقيه . ثم جلس إلى يمينه وصلى قاعدا .

وقضيت الصلاة ، فانجفل الناس إلى النبى فرحين ،

وما دار بخلدهم أن لقاءهم هذا هو اللقاء الأخير ، ولو علموا ذلك لانقلب فرحهم ترحا ، وسرورهم حزنا وغما .

***

ارتفع صياح من دار الرسول ، وسمعه المسلمون ، فأسرع العباس ودخل الدار وأغلق الباب خلفه ، وما لبث أن خرج حزينا ، فجزع الناس وأسرعوا إليه يسألونه :

ـ يا عباس ما أدركت منه ؟

ـ أدركته وهو يقول : « جلال ربى الرفيع قد بلغت » ، ثم قال : « واكرباه ! لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات . اللهم أعنى على سكرات الموت » .

وأطرق الناس ، وغشى وجوههم الإظلام ، وبان عليهم الذهول ، وارتفع الصياح ثانية ، فراح الناس يتساءلون فى حيرة وقلق : « أمات رسول الله ؟ أمات رسول الله ؟ » وحدث بينهم هرج فقد كذبوا خبر موته ، وما استطاعت عقولهم أن تصدق ذلك الخبر الفاجع ، ولكن لما أنبأهم أبو بكر بالرزء الفادح ، وتيقنوا من أن رسول الله قد قضى ، صاحوا جميعا فارتجت المدينة صيحة واحدة . وراح كبار الصحابة يبكون ويسكبون الدمع الهتون . وحزن بلال حزنا شديدا ، وانهمر الدمع من عينيه . لقد مات الرسول الأمين ، وذهب الصاحب الوف الكريم .

ودخل بلال ليلقى على النبى الحبيب نظرة وداع ، وليتزود

منه بالنظرة الأخيرة ، فألفاه مسجى على سريره ، فأحس غصة فى حلقه ، وترقرق الدمع فى عينيه ، وراح يصلى وفؤاده مثقل بالشجون ، ولما انتهى من صلاته خرج مطأطىء الرأس ، حزين النفس ، وانطلق إلى داره لينزوى فى بيت الأحزان .

خيم الحزن على يثرب ، وأقبل الليل ورسول الله فى داره لم يقبر بعد . حاول بلال النوم ولكن لم تغمض له عين . وراحت نفسه تعمل : فتذكر عطف الرسول وحدبه عليه وحبه له ، فازداد حزنا على حزن . وانقضى الوقت وئيدا وئيدا ، وطال ليل بلال كأن الليل ليس له نهاية ، وأخيرا ظهرت تباشير الفجر ، فخرج بلال قاصدا المسجد ليؤذن الفجر ، فسار بخطى ثقيلة ، وانطلق بنفس شفها الحزن ، وبلغ المسجد ودخل ، فوقع بصره على باب الرسول مقفلا ، فغامت عيناه بالدمع ، فلن يخرج الرسول إليهم منه أبدا ، ولن يتجه بلال إليه ليخبر النبى أن الناس فى المسجد ينتظرونه ليؤمهم ، فلن ينتظروه بعد اليوم ، وستتجه أنظارهم إلى باب آخر يلفظ فى المسجد ؛ إلى باب أمر الرسول ألا يسد يوم أن أمر أن تسد جميع الأبواب إلا باب أبى بكر خليفة رسول الله .

واعتلى بلال المسجد وقد نال منه الحزن ، وراح يؤذن بصوت حزين :

الله أكبـــر ! الله أكبـــر !
الله أكبـــر ! الله أكبـــر !
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن ...

وخنقت بلالا العبرات فما استطاع أن يذكـر اسم الرسول الحبيب ، والرسول مسـجى فى سريره ، فأجهش بالبكاء ؛ وسمع الناس انقطاع الأذان وبكاء بلال ، فتجددت الأحـزان ، فبكوا ، وراح بلال يغالب نفسـه ويتحكم فى عواطفه ليتم الأذان ! وأخيرا ردد بصوت فيه حزن ، وفيه بكاء :

أشـهد أن محمـدا رسـول الله
أشـهد أن محمـدا رسـول الله
حى على الصلاة ، حى على الصلاة
حى على الصلاة ، حى على الصلاة
حى على الفلاح ، حى على الفـلاح
حى على الفلاح ، حى على الفـلاح
الله أكبر ، الله أكبر
لا إله إلا الله

مؤذن الرسول

دفن النبى وفى نفوس الناس لوعة وأسى ، وفى مآقى القوم دمع ينهمر ، وخرج الناس إلى المسجد مطأطئى الرءوس ، ينعكس على وجوههم ما فى صدورهم من حزن شديد ، وراحوا يكفكفون الدموع ؛ وخيم على المكان صمت رهيب ، ثم ابتدأ الناس يهمسون ، وارتفع الهمس حتى صار حديثا ، فتذاكروا ما حدث بالأمس فى سقيفة بنى ساعدة من مبايعة عمر وأبى عبيدة بن الجراح لأبى بكر ، وموافقة الأنصار على ذلك ، وراح يبايع من لم يبايع بالأمس ، فتمت البيعة وأصبح أبو بكر خليفة رسول الله .

واعتلى أبو بكر المنبر ، وخطب خطبة أبان فيها سياسته ، ولما انتهى منها بقى الناس فى المسجد ينتظرون الصلاة ، فقد اقترب أوانها . واختار بلال ناحية منعزلة ، وجلس وأطرق ، وكان الأسى مرتسما على وجهه . وشرد فكره ، فعاد به إلى سنوات خلت ، إلى أيام كان عبدا فى مكة وتمثلت له أيام اضطهاده وتعذيبه ، أيام كان أمية يخرج إلى بطحاء مكة ويضجعه على الرمضاء . وعادت إلى خياله مشاهد أيام كان مع النبى محاصرا فى شعب أبى طالب لا يجد ما يتبلغ به أو يسد به رمقه ، ورأى هجرته وجهاده

يوم بدر ، وقتل أمية بن خلف ، وتذكر يوم أحـد ، يوم ثبت مع النبى بضع نفر يذودون عنه ، ويعرضون صدورهم للسهام جاعلين نحورهم دون نحره ، يوم ألقت امرأة قربتها من على متنها وحملت رمحا لتذب به عن الرسول الكريم ، وتفكر بلال ما مر به من مشاهد عظام وأحداث جسام ، فأحس حنينا ؛ فما أحلى أيام الكفاح ، أيام الاضطهاد فى سبيل الرأى والعقيدة ، أيام احتمال الشدائد والصبر على الأذى ، فلا يزيده التعذيب إلا صقلا وعزما . ومر بخاطره سؤال : « ترى هل تعود مشاهد كتلك المشاهد التى طواها الزمن ، وأضحت كأسـطورة من الأساطير ؟ ترى أيجود الزمن بأبطال يبذلون أرواحهم فى سبيل عقائدهم عن طيب خاطر كما فعل أصحاب الرسول ؟ » إنه لا يظن ، فأين من يبث فى أصحابه روح التضحية كما بثها النبى ؟ أين من يلقن أتباعه أن الموت والحياة سواء ، بل الموت الكريم أفضل من حياة الذل ؟ أين من يستحق أن يبذل الإنسان روحه فداء له عن طيب خاطر بعد النبى ؟ وكاد يركن إلى أن هذه المشاهد لن تعود ، وإلى أن الزمن بأمثـال هؤلاء الأبطال الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل عقيدتهم لن يجود ، ولكن هتف به هاتف : « ولم لا تعود هذه المشاهد ؟، ولم ينعدم أمثال هؤلاء الأبطـال ؟ ، ألأن رسـول الله قضى ؟! فلئن كان رسول الله ولى إن تعاليمه باقية ، ستنفخ فى الأجيال الآتية

روحا قوية فتية وستخلق أبطالا صناديد يكونون هم الخلف لخير سلف . إن كان رسول الله ولى ، فإن دين الله باق ، وقرآن الله باق ، والله يرعى عباده ، ويحفظ دينه » .

وأطرق بلال قليلا ، ثم تذكر حب النبى له ، وعطفه عليه فعاوده الأسى ، وغمغم : « إن فى موته خسارة ، ولكن هذا قضاء الله فصبرا جميلا » .

وحان وقت الصلاة ، وانتظر الناس سماع صوت بلال ، ولكن بلالا بقى فى مكانه مطرقا ، فحسب الناس أنه ما فطن إلى حلول الأذان ، فاتجه أحدهم إليه وقال :

— الأذان يا بلال !.

— لن أؤذن بعد اليوم ، فليؤذن غيرى .

وخرج أبو بكر من الباب اللافظ فى المسجد ، وقال :

— أين بلال ؟.

فتقدم بلال ووقف أمام خليفة الرسول ، فقال له :

— أذن يا بلال !.

— لا !.

— ولم يا بلال !؟.

— إن كنت إنما أعتقتنى لأكون معك فسبيل ذلك ، وإن كنت أعتقتنى لله فخلنى وما أعتقتنى له .

— ما أعتقتك إلا لله .

— فإنى لا أؤذن لأحد بعد وفاة رسول الله .

طلب الجهاد

المدينة فى حركة دائبة ، والناس يغدون ويروحون فى نشاط ، والرجال يسرعون فى عدة القتال للانضمام إلى جيش أسامة الذى سينطلق عما قريب إلى بلاد قضاعة من الشام ليقتص لزيد بن الحارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله ابن رواحة قواد الجيش الإسلامى الذى قتلوا فى غزوة مؤتة فى عهد الرسول . وخرج أسامة بن زيد بن الحارثة ، وهو فتى فى التاسعة عشرة من عمره معتليا صهوة جواده ، منطلقا إلى حيث كان الجيش . لقد اختار النبى أسامة لقيادة الجيش قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وقد طلب كثير من الصحابة من أبى بكر إيقاف جيش أسامة ، محتجين بأن الأمور قد تبدلت بعد موت الرسول ، ولا يعلم أحد ما يستجد من الأمور إذا علمت القبائل موت محمد . ولكن أبا بكر قال : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب لا أرد قضاء قضى به رسول الله » . وأمر بإنفاذ جيش أسامة .

وقف الجيش ينتظر حضور خليفة رسول الله ، ولمح الناس أبا بكر مقبلا راجلا ، ومن ورائه عبد الرحمن بن عوف

(بلال

يقود راحلته . وهم أسامة بأن يترجل ، فأشار إليه أبو بكر أن يبقى ، فقال أسامة :

ــ يا خليفة رسول الله .. والله لتركبن أو لأنزلن .

ــ والله لا تنزلن ، والله ولا أركب . وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى فى كل خطوة سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له ، وأن ترفع عنه سبعمائة خطيئة .

وأقبل بلال لابسا عدة القتال ، واتجه إلى أبى بكر ، فلما لمحه قال :

ــ إلى أين يا بلال ؟.

ــ جئت أطلب منك الإذن بالخروج فى جيش أسامة .

ــ ابق يا بلال .

ــ يا خليفة رسول الله ، لقد شعرت بفزع فى نفسى بعد فراق الرسول ، فرأيت أن أخرج للجهاد .

ــ إنى فى حاجة إليك يا بلال .

ــ يا خليفة رسول الله ، إنى سمعت رسول الله يقول : « أفضل أعمال المؤمن الجهاد فى سبيل الله » . وقد أردت أن أرابط فى سبيل الله حتى أموت .

ــ أنشدك الله يا بلال ، وحرمتى وحقى إلا بقيت .

فطأطأ بلال رأسه وصمت ، وقال أبو بكر :

ـــ هيه يا بلال ؟.

ـــ سأبقى .

والتفت أبو بكر إلى أسامة وقال :

ـــ يا أسامة ، اصنع ما أمرك به نبى الله ، ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم أت إبل ، ولا تقصرن من أمر رسول الله ، ولا تعجلن لما خلفت من عهده .

ـــ سمعا وطاعة .

ـــ إن أردت أن تعيننى بعمر فافعل .

وكان عمر فى جيش أسامة ، فأشار أسامة له فخرج من بين الصفوف . وأشار أبو بكر لجيش أسامة بيده وقال :

ـــ اندفعوا بإذن الله .

وانطلق الجيش ، وعاد أبو بكر وعمر وبلال إلى المدينة .

المفاضــلة

ارتد كثير من القبــائل عقب موت الرســول ، وامتنع خلق كثير عن تأدية الزكاة ، فعقد أبو بكر أحد عشر لواء لقتال هؤلاء المرتدين ، فانتصر عليهم ، وأرغمهــم على أن يؤتوا الزكاة عن يد وهم صاغرون .

وفى ليلة من ليالى الربيع ، بعد انقضاء حروب الردة ، وعودة السكينة إلى يثرب ، تكونت حلقة من الســامرين فى ضوء القمر الذى أضفى على المكان ثوبا جميلا ، وأخــذ السمار بأطراف الحديث ، وراحوا يتنقلون من حديث إلى حديث ، حتى ذكروا أبا بكر وما قام به فى حروب الردة من أعمال جسام ، وما له من أفضال على الإسلام ، قال أحدهم :

ـ إن أبا بكر رجل رقيق محبب ما فى ذلك شك ، عظيم جليل ما فى ذلك شك ، ولكن هناك من يقف معه على قدم المساواة فى التضحية ، بل هناك من يبزه فيها .

فقال الأول :

ـ ومن هذا ؟

ـ بلال .

ـ بلال بن رباح ؟

ــ أجل .

ــ كيف هذا ؟! وعلام بنيت حكمك الجائر ؟

ــ امتحن بلال امتحانا قاسيا رهيبا فثبت ، ولم يمتحن أبو بكر .

ــ لم يمتحن أبو بكر ؟ ألم يعــذب ويضطهــد ؟ ، ألم يضرب حتى غشى عليه وسال الدم من وجهه ؟

ــ اضــطهد كما اضــطهد غيره ، ولكنه لم يضــطهد الاضطهاد المروع ، ولم يعذب العذاب الأليم ، ولم يذق المر الذى ذاقه بلال . لقد كان بلال يرى الموت أقرب إليــه من حبل الوريد ، ومع ذلك ثبت ولم يتزعزع . كان لأبى بكر قبيلته التى تحميــه ، وكان يجد من يجيره فيمنع عنــه أذى القوم ، أما بلال فقد كان عبدا ، وكان لسيده أن يقتله دون أن يسأله أحد لم فعل ذلك ، وعلى الرغم من علمه بهذا فقد أعلن إسلامه ، وثار على معتقدات سيده ، وسفه أحلامه ، وثبت للوعيد ، ولم يأبه للتهــديد ، واحتمل الاضــطهاد صابرا ، وذاق العذاب فلم يتزعزع ، ورأى الموت فازداد يقينا على يقين .

فقال الأول لصاحبه وهو يحاوره :

ــ أبلال وحده الذى تعرض للموت ؟ لقــد تعرض له كثير من المسلمين ، وتعرض له أبو بكر أيضا .

ــ ومتى هذا ؟

ــ هاجر أبو بكر مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعلم علم اليقين أن قريشا ستقتفى أثرهما ، وأنها ستقتلهما لا محالة إن عثرت عليهما ، ومع علمه هــذا رافق النبى فى هجــرته ، معرضا نفســه للموت عن طيب خاطر فى ســبيل عقيدته .

ــ ولــكن قريشا لم تعثر عليهما ، فلو أنه وقع فى أيدى القوم وامتحن ، لأمكننا أن نرى قوة احتماله . وما يدرينا أنه لو امتحن لنال منه القوم ما يبغون كما نالوا ذلك من كثير من المسلمين . ما يدرينا أنه كان يطاوع القوم وينطق بما يريدون كما فعل عمار بن ياسر بما راودوه عن نطقه .

ــ احتمل عمار بن ياسر الأهوال ، ولم ينطق به إلا بعد أن رأى أباه يقضى تحت وابل من قذائف الحجارة ، وأمه تجود بأنفاســها أمام عينيه بعد أن صــوب أبو جهل رمحه إليها وحمل عليها ، فأصابها فى موضع العفة منها .. إنه لم ينطق بما نطق به إلا بعد أن وضعوا الحجارة المحماة بالنار على صــدره ، أو بعد هذا جئت اليوم تؤاخذه ؟ وبعد أن عفا الله عنه وأنزل فيه « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » تأتى اليوم لتعرض به ؟

ــ على رسلك يا سيدى ، ما أردت أن أؤاخذه أو أهون من شأنه . ولكنى ما سقت هــذا إلا لأدلل على أن بلالا ، وبلالا وحــده هو الذى ثبت للاضــطهاد ولم ينطــق بما

يشتهون . يا لعظمة بلال ، وهو تحت الصخرة يئن ويتوجع ، ولا يردد إلا ما يكرهون . لقد كان أبو جهل جبار الأمس بجوار بلال وهو تحت الصخرة ضعيفا لا حول له ولا سلطان . أذله بلال ونال من كبريائه ، وجعله حائرا لا يدرى أيطلقه ، وفى ذلك آية فشله ، أم يقتله ، وفى هذا دليل عجزه . لقد كان بلال وهو تحت الصخرة يئن ويتوجع سيد الموقف بلا مراء ، أرغمهم على أن يبيعوه لأبى بكر لما أقبل لشرائه ، لأنهم ما كانوا يدرون ما يفعلون لإنقاذ موقفهم وإيهام الدهماء أنهم سادة الأمر ، القابضون على زمامه . فقبلوا أن يبيعوه وهم يتنفسون الصعداء لخروج ذلك الطود العظيم الذى كسرت كبرياؤهم تحت قدميه من أيديهم . قبلوا أن يبيعوه عن طيب خاطر حتى لا يتجرعوا كأس الفشل إذا أصبحوا ، ولا يتجرعوه إذا أمسوا ، يا لبلال العظيم ، إنه سيد الممتحنين بلا منازع .

ـ خفف من غلوائك يا سيدى ، فإن مكانة أبى بكر لا يتسامى إليها أحد ، ولا يطمع فى أن يرقى إليها إنسان . اختاره النبى ليصحبه فى هجرته ، وليصلى بالمسلمين مكانه ، وقال فيه : « إن كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » . واختاره المسلمون ليكون خليفة للرسول .

ـ إن كان النبى قد اختار أبا بكر ليصحبه فى هجرته ،

فقد اختار بلالا ليكون خازن ماله ، ولم يختر أحدا غيره من صحابته ، وفى هذا دليل على عظم مكانته عنده .

ــ شهد عمر وأبو عبيدة وسائر المسلمين لأبى بكر بأنه أفضل المسلمين بعد النبى ، فبايعوه لذلك ، فلو كان بلال أفضل منه لما أحجموا عن مبايعته .

ــ وقد شهد عمر لبلال بالفضل ، فقال يوم أعتق أبو بكر بلالا : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

ــ فلولا أبو بكر ما اهتدى بلال .

ــ لولا الله ما اهتدينا جميعا .

وتلفت أحدهم فلمح شبحا قادما ، فأشار للسمار إشارة السكوت ، فتساءلوا : « ما هنالك » .

فقال لهم :

ــ بلال قادم .

فالتزموا جانب الصمت ، وأقبل بلال وحياهم وجلس ، واستمروا على صمتهم ، ولاحظ بلال كثرة تلفتهم ونظرهم بعضهم إلى بعض ، فأحس أن وراء ذلك شيئا ، فسأل :

ــ ما هنالك ؟

فقال أحدهم :

ــ كانوا يذكرون فضلك ، وما قسم الله لك من خير .

ــ إنما أنا حبشى كنت بالأمس عبدا .

وجمع أحدهم أطراف شجاعته وقال :

— إن أناسا هنا يفضلونك على أبى بكر .

فتغير وجه بلال ، ونهض من مكانه غاضبا وقال :

— كيف يفضلوننى عليه ، وأنا حسنة من حسناته ؟

استئناف الجهاد

اشتبكت الجيوش الإسلامية مع جيوش الفرس فى العراق ، وجيوش الروم فى الشام ، ودارت المعارك الطاحنة بين الدولة الفتية والدولتين المسيطرتين على العالم ، وراحت أنباء الانتصارات تتدفق على المدينة ، فتشيع البهجة فى النفوس ، ويدفىء الأمل الصدور ، فقد لاح فى الأفق تباشير فجر جديد لعهد جديد ، كله عز وسؤدد وسلطان . وكانت هذه الأنباء تبلغ بلالا فيحس فرحا عظيما ، ولكن كثيرا ما كان يمتزج بهذا الفرح شىء من الأسى ، فقد كان يحزنه ويحز فى صدره قعوده عن الجهاد مع المجاهدين ، وكان يتمنى فى قرارة نفسه أن تتاح له فرصة استئناف الجهاد والقتال فى سبيل الله ، ولكن أنى له هذه الفرصة وأبو بكر لا يصرح له بالخروج للغزو ، ويستبقيه بجواره كما كان بجوار الرسول ؟

ومرت الأيام وأنباء الانتصارات تتوالى ، فازداد حنين

بلال إلى الجهـاد ، وأحس رغبـة ملحة ، فوطن العزم على طلب الخروج للجهاد ثانية ، ولكنه علم أن أبا بكر مريض ، فأجل طلبه على مضض حتى يبرأ خليفة الرسول . ولكن ثقل المرض على أبى بكر ، ووصى بعمر بن الخطاب من بعده ، ثم مات أبو بكر فحزن عليـه بلال مولاه الذى أخرجه من الظلمات إلى النـور ، ونجاه من عـذاب قريش الرهيب ، وأطلق سراحه لله ، فصيره حرا أبيا بعد أن كان عبدا ذليلا .

وأتى بلال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، واستأذنه فى الخروج للجهاد ، فقال له عمر :

— ألا تبقى يا بلال بجوارى كمـا كنت بجـوار النبى وأبى بكر ؟.

— أحن إلى الجهاد يا أمير المؤمنين . ولا أستطيع عليه صبرا .

— ابق يا بلال فإنى فى احتياج إليك .

— بالله دعنى ولا تحرمنى الأجر والثواب .

— لك ما تريد يا بلال . وإلى أين تتجه ؟.

— سألحق بأبى عبيدة فى الشام .

— سر على بركة الله .

أحس بلال بموجة من السرور تجتاحه ، فقـد كتب له أخيرا أن ينال أمنيته التى طالما داعبته عقب وفاة الرسـول ، كتب له أن يعاود الجهـاد الذى يحن إليه ، وتصبو إليـه

نفسه ، وكتب له أن يعمل ثانية على نشر دين الله الذى عذب فيه واضطهد من أجله . وانطلق إلى داره وهو يشعر بفرح السجين الذى أطلق سراحه ، ودخل على زوجه وقد بان البشر فى وجهه فابتدرته :

— خيرا ؟.

— الرحيل ، الرحيل .

— إلى أين ؟.

— إلى الشام . إلى الجهاد .

وخرج بلال وزوجه من يثرب ضاربين فى الأرض ، تاركين الأهل والوطن خلفهما ، ميممين صوب الشام ابتغاء مرضاة الله . وأغذا فى السير ترفعهما النجاد وتحطهما الوهاد ، ويتتابع عليهما الليل والنهار ، وتنطوى الأرض تحت أرجل راحلتيهما ، حتى بلغا جيش أبى عبيدة ، فانضما إليه ، وراحا يزحفان مع الجيش الزاحف صوب بيت المقدس .

حاصر المسلمون بيت المقدس ، وامتد الحصار ، وأبى حاكم المدينة أن يسلمها إلا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه . فأرسل أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين ينبئه بالخبر ، فبعث عمر إلى قواد جيشه أن يجتمعوا به فى الجابية قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس ليشاورهم فى الأمر .

واتجه أبو عبيدة إلى الجابية ، وصحب بلالا معه . والتأم عقد القواد ، وجاء عمر ، فأقبل عليه الناس معانقين ،

وسار بلال إلى ركابه . وحان وقت الصلاة ، فطلب الناس من عمر أن يأمر بلالا بالأذان ، ففعل عمر ، ونهض بلال للأذان فأرهف الناس سمعهم ، وانطلق صوت بلال العذب الحنون الذى طالما سرى فى المدينة على عهد الرسول يدعو الناس إلى الصلاة ، فأهاج الذكريات ، فبكى الذين حضروا النبى لذكرى الرسول الحبيب ، وبكى عمر حتى بل لحيته ، وبكى الذين لم يروا النبى لبكاء إخوانهم . وأتم بلال أذانه وبقى الناس فى صمتهم ، وسيطر على المكان سكون كسكون الرموس ، حتى كبر عمر فاصطف الناس خلفه ، وراحوا يصلون فى خشوع . ولما قضيت الصلاة أراد عمر التوجه إلى بيت المقدس لتسلم مفاتيحها ، فأشار عليه المسلمون أن يغير ثوبه المرقع ، وأعطوه ثوبا أبيض بسيطا فارتداه ، وطرح على عاتقه منديلا من كتان ، ثم قدم إليه برذون أشهب من براذين الروم ، فامتطاه ، وراح البرذون يتبختر ، فنزل عنه عمر مسرعا وقال :

ـ أقيلوا عثرتى أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد أميركم أن يهلك بما دخل قلبى من العجب والكبر ، وإنى سمعت رسول الله يقول : « لا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من الكبر » ولقد كاد أن يهلكنى ثوبكم الأبيض وبرذونكم المهملج .

ونزع الثوب الأبيض ، وارتدى مرقعته .

وانطلق الركب صوب بيت المقدس ، وأخذ بلال وعمر بأطراف الحديث ، وما أن لمح الناس ركب أمير المؤمنين حتى ضجوا بالتكبير ، فارتج الفضاء ، وكان نذيرا لأهل المدينة بأن عمر قد جاء ، فأطل حاكم المدينة من السور ، وطلب أن يرى بنفسه عمر عن قرب . فتقدم عمر ، وأراد أصحابه منعه خشية أن يصيبه مكروه ، فقال :

— « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

وامتطى بعيره ، وانطلق صوب السور بقلب عامر بالإيمان وما أن رآه حاكم المدينة حتى صاح :

— هذا والله صاحب محمد بن عبد الله ، افتحوا الباب .

فتحوا الباب ، وخرج الناس إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة ، فلما رآهم اغرورقت عيناه ، وخر ساجدا على قتب بعيره شكرا لله رب العالمين .

واندفع المسلمون إلى بيت المقدس ، ودخل بلال مع الداخلين ، وراح يجوب المدينة التى أورثهم الله إياها ، وتذكر يوم قال لهم النبى إن الله سيورثهم ملك فارس وملك الروم ، فغمغم : « صدقت يارسول الله . أين من كانوا يكذبونك ليروا جيوشك المظفرة تكتسح جيوش الفرس والروم ؟ أين من كانوا يسخرون منك ليذوقوا الخزى

العظيم ؟ أين أمية وأبو جهل وشيبة ليروا نصرك المبين ؟ أين أنت يا رسول الله ؟ إنى لأحس بك بجوارى كما كنت يوم الفتح المبين » .

وترقرق الدمع فى عينيه وغمغم : « عليك رحمة الله يا رسول الله » .

الرق فى الاسلام

اجتمع بلال ببعض الذين أسلموا أخيرا فى الشام . وراح يفقهم فى دينهم ، فقال أحدهم :

— حرم الإسلام أشياء كثيرة ؛ حرم الخمر والميسر والزنا ، فلم لم يحرم الرق ؟.

فقال بلال :

— تعلمون أن العالم قائم على أعناق الرقيق ، فلو أن الإسلام حرمه دفعة واحدة ، لكان فى ذلك إضرار بالسادة والعبيد والمجتمع ، فالسادة سيخسرون كثيرا ، وكثير من العبيد سيجدون أنفسهم بلا عائل يعولهم فيضطرون إلى ارتكاب المحرمات ليسدوا حاجاتهم ، فيسوء الحال ، ويضطرب النظام .

وسأل آخر : وما فعل الإسلام بالرقيق ؟

فقال بلال : فعل ما لم تفعله شريعة أخرى ، فالتوراة أمرت بالرق ، والدين المسيحى لم يتعرض له ، فى حين أن الإسلام لم يترك فرصة من الفرص إلا حث فيها على تحرير العبيد ، ووعد الذين يحررون ما ملكت أيمانهم بجنات عرضها السماوات والأرض . وقد جعل الإسلام الإعتاق من أول واجبات الإنسان الشاكر لنعم ربه . قال تعالى : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة » . وقال فى كفارة القتل الخطأ : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصّدّقوا » . وقد أراد الإسلام أن يحرر العبيد من الرق على ألا يوقع حيفا بساداتهم ، فجعل للرقيق نصيبا من الزكاة يفتدون به أنفسهم من ساداتهم . قال تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . وقد شرع الإسلام نظام التحرير بالمكاتبة ، وهذا يقضى بأن العبد إذا ما آنس من نفسه قوة على الكسب وقدرة على سداد ثمنه ، وطلب من سيده أن يكاتبه على أن يعمل ليجمع مالا يفك به رقبة نفسه ، فما على سيده إلا الموافقة . قال الله فى ذلك :

« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

فقال ثالث : لقد واسى الإسلام الرقيق .

قال بلال : وأوجب الرفق بهم والإحسان فى معاملتهم . ولم يترك النبى الكريم فرصة إلا أوصى فيها بالرقيق ، فقد قال : « اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة » . وقد توفى وهو يقول : « اتقوا الله فى الصلاة وما ملكت أيمانكم » . وقد حبب فى إعتاق الرقاب بقوله : « من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداءه من النار » . وقد وجد الأرقاء فى دولة الإسلام عطفا وبرا أنساهم ذل الرق وعذاب الاستعباد ، حتى إن بعض الرقيق فضل مولاه على أهله وعشيرته .

وسأله رابع : وكيف ذلك ؟

فقال بلال : لما تزوج النبى السيدة خديجة وهبته زيد ابن حارثة عبدا له ، وبقى زيد مع النبى قرير العين ، رضى النفس ، وقدم إلى مكة وفد من بنى حارثة يطلبون شراء ابنهم زيد وفديته بتحريره من رقه ، فقال لهم النبى : « إن اختاركم فخذوه من غير ثمن » . ولما جىء اختار الرق مع النبى على الحرية بين قومه .

قال أحدهم : هذا عجيب !

فقال بلال : « لا ، ليس هذا بعجيب ، إن عطف المسلمين على أرقائهم عوضهم عطف الأهل ، بل أنساهم الأهل

والصحاب . فإني لما أطلق سراحى أبو بكر رضى الله عنه تبعته ولم أطق مفارقته لعطفه على ، ولما هاجر إلى المدينة نزلت فى داره وصرت مولى له ، وبقيت لا أطيق صبرا على بُعده حتى قبض » .

جاء الإسلام ولم يفرق بين العبد ومولاه ، قال الله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولم يأنف الإسلام من أن يولى العبيد المناصب الرفيعة ، فقد أسند النبى قيادة الجيوش لزيد بن حارثة وابنه أسامة من بعده ، كما زوج الرسول زيد ابنة عمته زينب بنت جحش ، وما كان لعبد أن يفكر فى هذا ، وما كان هذا ليقع فى قبيلة متواضعة ، فما بالك فى قبيلة عريقة النسب كقبيلة قريش ، ولكنه الإسلام الذى خضد من شوكة العصبية للقبيلة ، وسوى بين الناس » .

فقال آخر : كل هذا جميل ، وأجمل منه أن يحرم هذا النظام الجائر .

فقال بلال : سبق أن قلت لك إن فى تحريم الرق طفرة ضررا بالسادة والعبيد جميعا ، ولكن الإسلام عالج الأمر بأن خفف عن العبيد الحاليين وحبب فى إعتاقهم ؛ ووضع من الشروط ما يكفل أن يقضى على الرق فى المستقبل ؛ فقد حرم الإسلام الرق ، وأباحه فى حالة واحدة هى حالة وقوع حرب شرعية بين المسلمين وغيرهم ممن يعتدون عليهم،

ويفتنونهم فى دينهم ، ويصدونهم عن سبيل الله ؛ فإن لإمام المسلمين أن يضرب الرق على أسرى الحروب ، وله أن يمن عليهم ويخلى سبيلهم ، وله أن يفتدى بهم أسرى المسلمين .

ولقد أبيح الرق فى هذه الحالة حياطة للدين ، وكسرا لشوكة من يريد إيذاء المسلمين وإطفاء نور الله . إنى أعتقد أن هذه الحالة الوحيدة ستنتفى عقب استتباب الأمر للمسلمين ، فيزول هذا النظام البغيض من الوجود .

قال أحدهم : قد يوسوس الشيطان لبعض ضعاف النفوس خطف الأطفال والنساء وبيعهم فى سوق الرقيق .

قال بلال : قد حرم الإسلام هذا وتوعد فاعليه بعذاب أليم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » .

فقال آخر : كثيرا ما أسائل نفسى عن كيفية نشوء هذا النظام البغيض فلا أجد جوابا لسؤالى .

فقال أحد الحاضرين :

— لقد كان الرق أول خطوة من خطوات الرقى .

— أول خطوة من خطوات الرقى ؟!

— أجل ، ففى الأزمات الغابرة ، وفى عهد البداءة

الأولى ، كانت الحروب تشب بين القبائل المتجاورة ؛ فكان المنتصر يفتك بعـدوه المهزوم ، ولكن لما تطور الإنسـان ، واسـتوطن أرضا معينة تحتاج للزراعة والعناية ، شـعر بالحاجة إلى استخدام الأسرى عوضا عن قتلهم ، ومن هنـا نشأ نظام الرق ، وأصـبح نظاما سياسـيا فى حياة الأمم ، واعتبره كثير من الفلاسفة نظاما ضروريا مطابقا للطبيعة .

فقال بلال :

ــ رأيتم أن الإسلام لم ينظر إليه كنظام ضرورى مطابق للطبيعة ، بل نظر إليه كنظام بغيض مألوف ، فعمـل على استئصاله شيئا فشيئا . وإنى أظن أن المسلمين لو عملوا بما شرعه الدين الحنيف ، واتبعوا سنة الرسول الكريم ، لمـا انقضى كثير وقت قبل أن يصبح الرق كأمس الدابر .

واستمر الحديث بينهم حتى أقبـل الليل ، فنهض بلال وانطلق إلى داره .

عتـاب

جثم الظلام على مدينة عمواس ، فاتجه بلال إلى فراشه وأطبق جفنيه ، فطوقه سلطان الكرى بذراعيه ، فراح فى سبات عميق . ونام الكون ، وهـدأ كل شيء ، وظل بلال يغط فى نومه . ثم تململ فى رقدته ، وانبسطت أسارير وجهه ، وولدت على شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن الغبطة ، فقد رأى فى منامه النبى الحبيب مقبلا نحوه وعليه ثياب بيض ، فانجفل إليه ، وسلم عليه ووقف معه والغبطة تشيع فى نفسه ، والسرور يداعب قلبه ، وتحركت شفتا النبى فأرهف بلال سمعه ، فقال النبى معاتبا : « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ؟ » فهب بلال من نومه وصدى كلمات النبى يرن فى أذنيه : ما هـذه الجفوة يا بلال .. ما هـذه الجفوة يا بلال ، فاجتاحته موجه من الأسى ، ووقع فى نفسه حزن ثقيل . وغمغم : جفوة ؟!.. لا يا رسول الله .. انقضت سنون ولم أزر مسجدك ، ولكنها ليست بجفوة ، فما غاب رسمك عن عينى ، وما نسيتك لحظة ، أو ونت شفتاى عن ترديد اسمك ، أو قصر لسانى فى الصلاة عليك . لا يا رسول الله إنها ليست بجفوة ..

سأشـد الرحال من فورى ، وسأنطلق إلى يثرب مدينتـك المفضلة لزيارة مسجدك .

واتجه بلال نحو البـاب وفتحه ، فرأى ظلمات بعضها فوق بعض ، وتطلع إلى السماء فألفى نجوما خافتة ترسـل أشعتها ضعيفة واهنه فلا تلبث أن تغوص وتختفى فى طيات الظلام . لقـد كانت ليلة حالكة السـواد ، فلن يسـتطيع الانطلاق قبـل طلوع النهار ، ولكن متى الصباح متى ؟ أيقـدر بلال أن ينتظر الصـباح ونار الأشواق تتـدلع فى صدره ؟ وراح الوقت يمر وئيدا وئيدا وبلال يذرع الحجرة جيئـة وذهوبا . ثم تذكر زاده ، وأنه لم يتخذ ما يصـلحه ويبلغه ، فراح يعده . وانتهى من إعداده ، ولكن الليل لم ينته بعد ، فراح يتململ فى ضجر ، فأنى له بجناحين يحملانه إلى يثرب ، إلى مسجد الحبيب .

وفتحت زوج بلال عينيها فألفت زوجهـا يقطع الغرفة مقبلا مدبرا وعلامات التبرم بادية عليه ، فسألته :

ـ ما بك ؟

ـ أريد الانطلاق إلى يثرب .

ـ ولم ؟

ـ لأزور مسجد النبى صلى الله عليه وسلم .

ـ ألا تهجع حتى يطلع النهار ؟

ـ طار النوم من عينى .

وابتدأ أخيرا مولد النهار ، وبان فى الأفق البعيد بصيص من نور ، فخرج بلال مسرعا واتجه إلى راحلته وامتطاها ، وزجرها فهمت لتندفع صـوب مدينة الرسول . وكان بلال يستحثها على الإسراع بين الفينة والفينة ليلحق بالقافلة التى خرجت بالأمس قاصـدة يثرب ، فراحت راحلتـه تغذ فى السير وتنطلق لا تلوى على شىء . وطال به السفر ولحق بالقافلة فى الطريق فانضم إليها ، وكان طوال الطريق لا يسمع إلا صوت تفبـه ، وأنات المطايا التى كانت ترسـلها كلما أحست بالتعب وحنت إلى الراحة . انطلق فى طريق الشـام التى طالما قطعها أيام كان عبدا لبنى جمح يحمل تجارتهم ، فما بعثت الطريق الذكريات فى نفسه كما كانت تبعثها كلما مر بها ، أو كما بعثتها يوم خرج إلى الشام لاستئناف الجهاد والانضمام إلى جيش أبى عبيدة : كان منطويا على نفسـه يفـكر فى عتاب الرسـول له . وتكشفت له أرباض يثرب فصار قلبه كجناح خافق ، فزجر راحلته فأسرعت ، وانفصل عن القافلة ، ودخل يثرب وقلبه يضطرب فى صدره . وأحس رغبة تمتزج برهبة : رغبة فى الإسراع إلى مسجد الحبيب ، ورهبة من الوقوف فى حضرته بعد هـذا الغياب الطويل . لطالما دخل بلال يثرب ، ولطالما خرج منها ، ولكنه ما شعر بما يشعر اليوم به قط . ولطالما قابل النبى فى حياته . ولطالما

زار مسجده بعد وفاته ، ولكنه ما اضطرب كاضطراب اليوم ، ولا أحس حنينا كحنين اليوم .

وبان له مسجد الرسول ، فازداد وجيب قلبه ، وازداد اضطراب نفسه ، وازداد حنينه ، وجدت راحلته فى السير حتى بلغت باب المسجد النبوى ، فأناخها ونزل عنها وتقدم فى خشوع ، ثم دلف من الباب ، ولما أصبح أمام القبر اضطرب ، وهتف بصوت تخنقه العبرات :

ــ السلام عليك يا رسول الله !

وأحس غصة فى حلقه ، وترقرق الدمع فى عينيه ثم سال على خديه . وأطرق صامتا ، وراحت روحه تهيم فى سماء الذكريات ، فتذكر النبى ومشاركته له فى السراء والضراء ، فى العسر واليسر . فى الإقامة والظعن ، فى الحرب والسلم ، فاطمأنت نفسه ، وخمدت نار شوقه ، وشعر بهدوء وارتياح . وتصرم الوقت وما أحس بلال انقضاءه ، فقد كانت روحه متصلة بروح النبى الحبيب . واستمر فى إطراقه ، وابتدأ الليل ينشر أجنحته على الكون وبلال فى مكانه لا يحس شيئا مما حوله ، ثم سمع صوتا يهتف : بلال .. بلال .

فأفاق من غمرته ، ورفع رأسه . والتفت نحو مصدر الصوت فرأى الحسن والحسين ، فتجددت أشجانه ، وترقرق

الدمع فى عينه ، وأسرع إليهما يضمهما إلى صدره ويقبلهما ويغمغم : « كلما رأيتكما ذكرت بكما رسول الله » .

وساد السكون بينهم برهة ، ثم قال الحسن :

— متى أنت ها هنا ؟

— عندما مالت الشمس نحو الأفق دخلت القافلة يثرب ، فاتجهت من فورى إلى هنا لزيارة النبى الحبيب .

— وأين تبيت ليلتك ؟

— فى المسجد .

— ستبيت عندنا الليلة ، هيا يا بلال .

وخرجوا من عند الرسول ، وانطلقوا إلى دار الحسن . وفى الطريق أخذوا بأطراف الحديث ، فالتفت الحسين إلى بلال وقال :

— حرمتنا يا بلال من صوتك منذ قبض الرسول ، ونشتهى أن تؤذن فى السحر !

فقال الحسن :

— أجل يا بلال لقد حرمتنا عذب صوتك ، ألا تؤذن فى السحر ؟

— بلى .

ودخلوا الدار ولم يرهم أحد ، وبات بلال ليلته ، ولما سل سيف الفجر من غمد الغلس ، انطلق إلى المسجد وعلا سطحه ، فأحس غبطة ، ولفح نسيم السحر وجهه فأنعشه ،

وأجال بصره فى الدور الجاثمة حوله فقفزت الذكريات إلى رأسه ، ذكريات عهد الرسول . ورفع صوته بالأذان ، فانطلق مجلجلا فى أجواء المدينة المنورة :

الله أكبر ، الله أكبر
الله أكبر ! الله أكبر !

فارتجفت المدينة ، وحسب القوم أنهم فى حلم جميل ، والتفت كل إلى رفيقه وراح يسأله فى إنكار : « أهذا بلال ! » واستأنف بلال أذانه :

أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن لا إله إلا الله

فهب الناس من نومهم ، وقال بعضهم لبعض : « هذا بلال ولا شك ، ولكن ما جاء به من الشام ؟ » وفتح الرجال أبواب دورهم وانطلقوا إلى المسجد مسحورين مأخوذين بعذوبة صوت بلال الندى ، وصاح بلال مرددا :

أشهد أن محمدا رسول الله
أشهد أن محمدا رسول الله

فأطرق الرجال ، وهز الصوت أوتار قلوبهم ، ودمعت عيونهم ، وخرجت النساء من خدورهن ، وانفلتن إلى المسجد ، وتذكر الناس عهد الرسول فتحركت الأشجان ، وسالت العبرات ، وطأطأت الرءوس ، فإذا المكان ساكن

سكون الرموس . وارتفع صـوت بلال ثانيـة يدعو إلى الصلاة :

حي على الصـلاة
حي على الصـلاة

فتجاوبت أرجاء يثرب دعوته ، وهمهم القوم : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

ورد بلال :

حي على الفـلاح !
حي على الفـلاح !
الله أكبر ! الله أكبر !
الله أكبر ! الله أكبر !
لا إله إلا الله

أتم بلال أذانه ، وظل الناس على إطراقهم حتى هبط وأضحى بينهم ، فالتفوا حوله وراحوا يسلمون عليه وأقبل عمر وعانقـه . ثم قامت الصـلاة ، فأم عمر القوم ، وكبر فكبروا خلفه وراحوا يصلون لله رب العالمين .

غدا نلقى الأحبة

قضيت الصلاة ، وانتشر الناس فى الأرض ، وبقى بلال وعمر فى المسجد يتجاذبان أطراف الحديث ويتحدثان عما فتح الله على المسلمين من بلدان الشام ، ثم نهض بلال وخرج ليزور أصحابه وأحبابه وليمتع الطرف بيثرب التى أوته من عشرين سنة خلت ، يوم هاجر إليها طريدا معذبا منبوذا .

ومكث بلال بيثرب ما شاء الله له أن يمكث ، ثم شاء العودة إلى الشـام ، فراح يسأل عن قافلة خارجة إليها ، فعلم أن ثم قافلة ستخرج بعد يومين ، فراح يتأهب للرحيل . ولما جهز خرج يضرب فى أحياء يثرب وضواحيها يتزود منها بنظرة قبل الانطلاق ، فكان كلما مر ببقعة تذكر ما حـدث له فيها أيام النبى ووقف يودعها كما يودع عزيزا عليه ، أثيرا عنده . وأحس حزنا ما عرف تأويله ؛ فلقـد خرج من مكة مشردا من عشرين سنة فما أحس هذا الحزن ، وخرج من يثرب مرات فما وقع فى نفسه ما وقع فيها اليوم ، وانقضى الزمان ولم يبق على انفصال القافلة إلا ساعة ، فاتجه بلال إلى أصـحابه يودعهم ، فكان كلما صافح أحدهم ترقرق الدمع فى عينيه ، وأحس برغبة فى ضمه إلى صدره . وخرج

من عند عمر منقبضا فغمغم ، « ما دهانى اليوم ؟ وما هـذا الشعور الغريب الذى يسيطر على ؟ وما لدموعى اليوم غزيرة ما تكاد ترقأ حتى تنهمر ؟ ولم أجوب يثرب وأضرب فى أحيائها كأنما أودعها الوداع الأخير ؟ لعل هذا آخر زياراتى لها ، ولعل لقائى هذا لأصحابى هو آخر عهدى بهم ، ولعل عتاب الرسول لى كان دعوة لزيارة يثرب وأهل يثرب قبل الرحيل الأخير » .

وانطلق بلال إلى القافلة ، ولم يكن يسير فى الطريق وحده بل كان برفقة نفسه يحادثها . وبلغ الركب فامتطى راحلته . وانطوى على نفسه ينتظر الرحيل .

سارت القافلة ، وسار بلال الهوينى ، وكان يتلفت خلفه بين الفينة والفينة ، وأخذت يثرب تختفى عن عينيه شيئا فشيئا . فشعر بلوعة ، ثم اختفت يثرب وغيبها الأفق فأحس كأنما خلف قطعة من روحه خلفه . وراحت القافلة تضرب فى طريق الشام ، وأخذت نفس بلال تصفو شيئا فشيئا حتى ردت إلى طبعها ، وبعد سفر مضن طويل ، بلغت القافلة الشام ، فاتجه بلال إلى داره ، وراح يستريح من وعثاء الطريق .

واستأنف بلال حياته فى الشام ، وفى يوم من الأيام أحس ضعفا واعتلالا ، فلزم داره ، وازداد الضعف على مر الأيام ، وازدادت وطأة المرض عليه ، فأصبح صدره يعلو

وينخفض . وجلست زوجه بجواره تمرضـه ، فألفته يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وفتح عينيه فسألته :

ـ كيف تجدك ؟

فغمغم :

ـ دنا الفراق .

ونظر أمامه فخيل له الوهم أنه يلمح أشباحا ، وجسّم خياله الأشباح فصاروا أناسا يحبهم ويحبونه ، وقفوا عند فراشـه ينتظرونه ، فهذا محمد ، وهذا أبو بكر ، وهؤلاء أصحابهما الراحلون يدعونه ليلحق بهم ، فارتسـمت على شفتيه ابتسـامة خفيفة ما لبثت أن اختفت ، ثم زفر زفـرة شديدة ، وأسبل عينيه ، وألقى رأسه على صدره ، فصكت زوجه وجهها ، وأهت أهة ، وهتفت :

ـ واحزناه !.

فغالب بلال ضعفه وفتح عينيه وغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

ـ بل وافرحتاه !. غدا نلقى الأحبة : محمدا وصحبه .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

		الطبعة الأولى
أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبى بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد)	ترجمة مع محمد محمد فرج	يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيقان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨
أرملة من فلسطين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩

		الطبعة الأولى
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	أكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله وإسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	أكتوبر سنة ١٩٧٢
هذه حياتى	(قصة حياة المؤلف)	فبراير سنة ١٩٧٤
ذكريات سينمائية		أبريل سنة ١٩٧٤
كشك الموسيقى		سنة ١٩٧٥
خفقات قلب		سنة ١٩٧٥
صور وذكريات		سنة ١٩٧٥
الاسراء والمعراج		سنة ١٩٧٧
عدو البشر		سنة ١٩٧٨
أبطال الجزيرة الخضراء		سنة ١٩٧٨
النمر		سنة ١٩٧٩
الله أكبر		سنة ١٩٧٩
ثلاثة رجال فى حياتها		سنة ١٩٧٩
مسجد الرسول		سنة ١٩٨٠
فات الميعاد		سنة ١٩٨٠
آدم إلى الأبد		سنة ١٩٨٢
العرب فى أوربا		سنة ١٩٨٤

محمد رســول الله

والذين معه

فى عشرين جزءا

رقم الايداع ٢٢٢٧

الترقيم الدولى ٢ ـ ٣٥١ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧